شبهات مسيحية حول القرآن

يتصدى للرد على عدد من دعاوى التناقض
بين آيات من القرآن المجيد

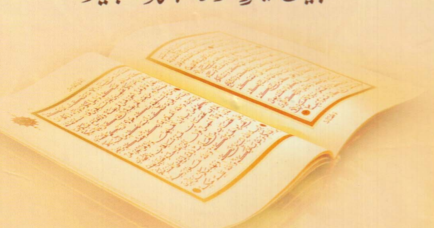

تأليف
الشيخ محمد صنقور علي البحراني

الجزء الثاني

شبهات مسيحية حول القرآن

يتصدى للرد على عدد من دعاوى التناقض بين آيات من القرآن المجيد

شبكة الفكر
alfeker.net

تأليف
الشيخ محمد صنقور علي البحراني

الجزء الثاني

هوية الكتاب

اسم الكتاب:..................شبهاتٌ مسيحيّةٌ حول القرآن (الجزء الثاني)

المؤلف:...........................الشيخ محمّد صنقور علي البحراني

الطبعة:..الأولى

مكان الطبع:...قم المقدّسة- ايران

سنة الطبع:...١٤٣٤هـ-٢٠١٣م

الكميّة:... ٢٠٠٠ نسخة

الناشر:.............................حوزة الهدى للدراسات الإسلامية

هاتف: ١٧٥٥٥٤٨٧ - ٠٠٩٧٣ ، فاكس: ١٧٥٥٢١٩٦- ٠٠٩٧٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الشبهة الثالثة والعشرون

دعوى اختلاف قول موسى عندما آنس النار

الشبهة الثالثة والعشرون

دعوى اختلاف قول موسى عندما آنس النار

أورد القرآن في سورٍ مختلفة ما وقع لموسى وهو في طريقه مع أهله إلى مصر فقد ذكر أنَّه وجد ناراً وحينها قال لأهله قولاً تناقضت الآيات في نقله، فورد في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[1] وفي سورة القصص: ﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2]، وأما في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾[3].

١- سورة النمل الآية/٧.

٢- سورة القصص الآية/٢٩.

٣- سورة طه الآيتان/٩-١٠.

فما ينقله القرآن من أقوال موسى لأهله متناقض رغم اتِّحاد الموقف: فهل قال موسى لأهله: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أو قال لهم: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أو قال لهم: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؟! هذا مضافاً إلى الاختلاف في درجة اليقين مما هو فاعل، فمرةً يؤكد لهم أنَّه سيأتيهم منها بخبر، وأخرى يقول بغير ثقة: لعلِّي آتيكم منها بخبر.

الجواب

تعدد الألفاظ والمؤدى واحد:

ليس ثمةَ اختلافٌ بين مؤدًى الآيات الثلاث فضلاً عن دعوى التناقض، وأما الاختلاف الواقع بين الألفاظ مع الإتِّحاد في المؤدَّى فهو من التفنُّن في إيراد الكلام.

كلام موسى عليه السلام تمحور في موضوعين:

فما أفادته الآياتُ الثلاث من قول موسى عليه السلام لأهله كان مُتمحوراً في موضوعين، وقد خاطب موسى بهما أهله ليبرِّر لهم عزمه على قصد النار التي آنسها ورآها من بُعد:

الموضوع الأول: جلبُ الشُّعلة:

أما الأول: فهو جلبُ شعلةٍ من تلك النار لأهله، وقد صِيغ ذلك في سورة طه بقوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾، وصِيغ في سورة النمل بقوله: ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، وصِيغ في سورة القصص بقوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾.

المؤدى واحد

ومؤدَّى هذه الصِيَغ الثلاث واحد، فمفادها جميعاً هو انَّه كان قد عقد العزم على قصد موضع النار لجلب شعلةٍ منها إلى أهله، فعبَّرت إحدى الآيات عن الشعلة بالقبَس، ذلك لأنَّه لن يأتي لأهله بالنار كلِّها وإنَّما سيقتبس منها قبسةً فيحملها إليهم، وعبَّرت الآية الثانية عن ذلك "بشهابٍ قبس" أي بشعلةٍ مقتَبسةٍ من تلك النار، وعبَّرت الثالثة عن ذلك بالجذْوةِ من النار، والجذوة هي الشعلة أيضاً أو هي القطعة الغليظة من الحطب يُوضع أحدُ طرفيها في النار فإذا ما نشَبتْ فيها النار حُملتْ من الطرف الآخر وأُخذت حيثُ الجهة المقصودة، فالقطعة الخشبيَّة بعد اشتعال طرفها الأعلى بالنار يُعبَّر عنها في اللغة بالجذوة، ويُعبَّر عن النار المشتعلة في طرف الخشبة بالقبَس، لأنَّها كانت قد اقتُبست من نارٍ أخرى، ويُعبَّر عنها أيضاً بالشِّهاب، لأنَّ الشهاب يُطلق على كلِّ نور ممتدٍّ كالعمود، فلأنَّ الخشبة إذا اشتعل طرفها الأعلى وحُملت من طرفها الأسفل امتدَّ ضوءُ شعلتها في الظلام لذلك سُمِّي شِهاباً، وهو شهابٌ قبس لأنَّه كان قد اقتُبس من نارٍ أخرى، فأين هو التنافي بين مؤدَّى هذه الصِيَغ الثلاث؟! أليستْ كلُّها تُعبِّر عن معنىً واحد هو أنَّ موسى عليه السلام قد تعلَّقتْ إرادتُه بجلبِ شعلةٍ من تلك النار إلى أهله. هذا ما يتَّصل بالموضوع الأول.

الموضوع الثاني: التقصّي عن خبرٍ ينشُده:

وأما الثاني: فهو انَّه كان يرجو من قصده لموضع النار الوقوف على خبرٍ يسترشدُ به، حيثُ انَّ ظاهر الآياتِ الثلاث أنَّه كان في حاجةٍ إلى أمرٍ يَنشدُه، فلعلَّه كان قد أضاع الطريق أو انَّه كان يبحث عن منتجعٍ يستريحُ وأهلُه عنده، فحين وجدَ النار عزمَ على قصدها لعلَّه يجدُ عندها ضالَّته ومبتغاه، ذلك لأنَّ وجود النار في مثل هذه المواضع يستلزمُ عادةً وجود أناسٍ حولها، وهم قد يكونون عارفين بما كان موسى عليه السلام ينشدُه.

فهذا هو الأمر الآخر الذي قاله موسى عليه السلام لأهله في مقام بيان الغرض من انعقاد عزمه على قصد النار التي آنساها من بُعد، وقد صِيغ هذا الغرض في الآية من سورة النمل بقوله: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وصِيغ في الآية من سورة القصص بقوله: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وصِيغ في الآية من سورة طه بقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾.

المؤدى واحد:

ومؤدَّى الآياتِ الثلاث في إفادة الغرض المذكور واحد، أما الآية الأولى والثانية فمتَّحدتان في اللفظ كما هو الإتحاد في المؤدَّى، حيث عبَّرت كلٌّ منهما بلفظ الإتيان لأهله بخبرٍ من موضع النار، وأما الآية الثالثة فاستعاضت عن لفظ الخبر بكلمة "هدى" وهي تُعطي ذاتَ المؤدَّى من لفظ الخبر، لأنَّ الخبر الذي يرجو موسى الوقوفَ على مضمونه هو

الخبر الذي يُرشده إلى ضالته ومبتغاه، فإنْ تحقَّق ذلك له فقد اهتدى إلى ضالَّته وعلم بما كان يرجو معرفته، وهذا ما يُصحِّح توصيف مثل هذا الخبر بالهدى، فمعنى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ هو انَّه يحصل عند مَن هم في موضع النار من الناس على خبرٍ يهتدي به إلى ضالَّته وهي معرفة الطريق الذي أضاعه أو معرفة الموضع الذي يُستراح عنده أو ما أشبه ذلك من حاجات المسافرين.

الهدى في الآية ليس بمعنى الإهتداء بالدين:

فمعنى الهدى الذي يطمح موسى عليه السلام في تحصيله عندما يقصد موضع النار هو الشيء الذي يستدلُّ به على حاجته وحاجةِ أهله، كما يقتضيه المدلول اللغوي للفظ "هَدًى"، والذي يُؤكِّد إرادته للمعنى المذكور هو انَّ مقتضى العادة هو انَّ الذين سوف يُصادفهم في موضع النار هم أُناسٌ عاديُّون، وأقصى ما يُمكن أنْ يجده عندهم هو معرفتهم للطريق السالك أو للموضع الذي يُستراح عنده أو يكونُ عندهم علمٌ بموضع أو تشخيص الدواء الذي يطلبه لو كانت تلك هي حاجتُه، وأما أنْ يجد عندهم ما يهتدي به إلى دينه فقصدُه لذلك من لفظ الهدى في غاية البُعد، إذ انَّ مثل ذلك لا يُنتظر عادةً من مسافرين أو من البدو الذين يقطنون الفلوات، هذا مضافاً إلى استغنائه عن ذلك، فهو قد كان في كنف

نبيٍّ من أنبياء الله تعالى سنين عديدة، وقد رحَلَ عنه قريباً بعد زواجه من ابنته.

على انَّ ظاهر سياق الآية المباركة انَّ حاجته كانت عارضة اقتضتها ضرورةُ السفر، وقد استدعته إلى انْ يُخاطب أهله بأنْ يمكثوا لينصرف عنهم بعيداً إلى تلك النار، وقد كان ذلك في بهيم الليل وفي صحراءَ قاحلة وأجواء شاتية، فليس من مُبرِّرٍ يُصحِّحُ له الإنصراف عن زوجته وطفلها في مثل هذه الظروف ويكون ذلك مقنعاً لزوجته لولا انَّ الإنصراف كان لحاجةٍ مشتركة ومُلحَّة ولا يَتحمَّل مثلُها التريُّث والتأخير كلَّما سنحت لتحصيلها فرصةٌ محتملة، وذلك إنَّما يُناسب الحاجات التي تقتضيها الأسفار.

كلٌّ ذلك يُؤكِّد انَّ المراد من الهدى في الآية المباركة ليس هو الهداية الدينية ولا هو الهداية للنبوَّة وإنَّما هي الهداية للطريق أو ما أشبه ذلك من الحاجات التي تقتضيها الأسفار، فيكون لفظ الهدى الذي ورد في هذه الآية متَّحداً في المؤدَّى مع لفظ الخبر الذي ورد في الآيتين الأوليين، إذ لا ريب انَّ المراد من الخبر في الآيتين هو الخبر المُرشِد إلى الحاجة المنشوده له ولأهله كما هو مقتضى قوله: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أو قوله: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فهو في مقام تبرير تركهم وإنصرافه عنهم إلى تلك النار بشَّرهم باحتمال أن يحمل إليهم خبراً من تلك النار،

وذلك إنَّما يُناسب تضمُّن الخبر الذي يرجو حمله إليهم لمدلولٍ يقتضي انفراج ما هم واقعون فيه من كربٍ جرّاءَ سفرِهم في الصحراء.

لا تناقض حتى مع القول بالهداية للدين:

ثم إنَّه لو سلَّمنا جدلاً انَّ المراد من الهدى في الآية من سورة طه هو الهداية للدين أو للنبوة فإنَّ ذلك لا يقتضي الحكم بالتناقض بينها وبين الآيتين الأوليين، وذلك لأنَّهما لم تكونا ظاهرتين في عدم قول موسى عليه السلام لأهله غير الذي نقلته الآيتان من قوله، فليس في إحداهما دلالة على حصر ما قاله موسى لأهله في خصوص ما نقلته كلٌ منهما، بل أقصى ما أفادته كلٌ من الآيتين هو انَّ ذلك كان قد قاله موسى عليه السلام لأهله وأما انَّه لم يقل لأهله شيئاً آخر حين انصرافه إلى موضع النار فهو مالم تتكفل الآيتان بنفيه أو إثباته.

وعليه فمن الممكن جداً أنّ يكون موسى عليه السلام قد قال لأهله شيئاً آخر أغفلته كلٌ من الآيتين لغرضٍ ما وتصدَّت الآية الثالثة لنقله، إذ لا محذور في أنّ تتصدى آيةٌ أخرى لنقل ما لم تنقله الآيتان من قول موسى لأهله بل لو جاءت آيةٌ رابعة ونقلت مالم تنقله الآيات الثلاث مجتمعةً فإنَّ ذلك لا يقتضي الحكم بمنافاتها للآيات الثلاث بعد أنّ لم تكن الآيات الثلاث أو إحداها ظاهرةً في حصر ما قاله موسى عليه السلام فيما نقلته من قوله.

التناقض فرع التكاذب:

وبتعبير آخر: إنَّ الحكم على خبرين أو أكثر بالتناقض لا يتمُّ ولا يصحُّ إلا إذا كان صدقُ أحدهما مقتضياً لكذبِ الآخر وهكذا العكس، وأما إذا لم يكن الأمر كذلك وكان أحدُ الخبرين مشتملاً على أمرٍ زائدٍ لم يتصدَ الخبر الأول لنقله أو كان كلٌ من الخبرين مشتملاً على مضمونٍ مشترك وانفرد كلٌ منهما بمضمونٍ لم يتعرَّض له الخبر الآخر، ولم يكن في الخبرين ما يدلُّ على انحصار ما وقع بما ينقله فإنَّه في مثل هذا الفرض لايكون بين الخبرين تناقض، بعد أن لم يكن بينهما تكاذب.

مثالٌ توضيحي:

فلو قال أحدهم: سافرتُ إلى بغداد وإلى مصر، ثم قال في مجلس آخر بعد ساعةٍ من قوله الأول: سافرتُ إلى بغداد وإلى مصر وإلى المغرب فإنَّ أحد الخبرين لا يناقض الآخر، إذ لا تكاذبَ بينهما، غايته انَّ الخبر الثاني اشتمل على خبرٍ زائد لم يتعرَّض له الخبر الأول، نعم يكون بين الخبرين تكاذبٌ لو كان الخبر الأول مشتملاً على ما يدلُّ على انحصار سفره إلى خصوص البلدين الأولين، وحيثُ انَّ مفروض الخبر هو عدم دلالته على الانحصار وإنَّ أقصى ما يدلُّ عليه هو الإخبار عن سفره إلى بغداد ومصر وأما ما زاد على ذلك فهو لا ينفيه ولا يثبته، لذلك لا يكون الخبر المشتمل على الزيادة مناقضاً للخبر الأول، وهكذا لو

اشترك كلٌ من الخبرين في مضمونٍ واحدٍ وجاء كلٌ منهما بزيادةٍ لم ينقلها الخبر الآخر فإنَّه لا يكون بين الخبرين تناقض أيضاً كما لو قال في الخبر الأول: سافرتُ إلى بغداد ومصر والمغرب، وقال في الخبر الثاني: سافرتُ إلى بغداد والمغرب ودمشق، فإنّ الخبر الأول اشتمل على زيادةٍ لم ينقلها الخبر الثاني وهي السفر إلى مصر، واشتمل الخبرُ الثاني على زيادةٍ لم ينقلها الخبر الأول، وهي السفر إلى دمشق ورغم ذلك فإنَّه لا تناقضَ بين الخبرين بعد انْ لم يكن الخبر الأول نافياً للزيادة كما انَّه ليس مُثبتاً لها، وكذلك الخبر الثاني فإنَّه لا يدلُ على نفي الزيادة كما لا يدلُ على إثباتها، فكلٌ منهما ساكتٌ عن الزيادة التي أوردها الخبر الآخر.

تطبيق الكلام على محلِّ البحث:

ومنه يتَّضح انّ اشتمال الآية من سورة طه على مالم تشتمل عليه الآيتان من سورتي النمل والقصص لا يقتضي الحكم بمنافاتها للآيتين بعد انْ لم تكن الآيتان نافيتين لما نقلته الآيةُ من سورة طه، وذلك لعدم ظهورهما في انحصار ما قاله موسى لأهله في خصوص ما تصدَّت كلٌ منهما لنقله من قوله، فليس لهما دلالةٌ على نفي مازاد على ما نقلاه من قول موسى لأهله.

فهما قد أفادتا انّ موسى عليه السلام قال لأهله: ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ

جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ فليس في الآيتين ما يدلُّ على انَّ ذلك هو خصوص ما قاله موسى لأهله، فلعلَّه قد قال شيئاً آخر إلا انَّ الآيتين لم تُبيِّنه لخروجه عن مورد غرضهما، عيناً كما لو قال المدرس للتلميذ: لقد جاء أبوك إلى المدرسة والحال انَّ الذي جاء إلى المدرسة هو أبوه ورجلٌ آخر إلا انَّه حيثُ لم يكن الإخبار عن مجيء الرجل مورداً لإهتمام المدرس أو المخاطَب لهذا لم يتصدَ للإخبار عنه لكنَّه قد يتصدى للإخبار عن مجيئه عندما تقتضي الحاجة أو الغرض لذلك، فما هو المحذور في ذلك؟ أليس هو ما يتعاطاه العرف من أهل الكلام والمحاورة؟

التوهُّم الأخير: اختلاف درجة الوثوق:

وأما دعوى اختلاف قول موسى لأهله في درجة الوثوق وانَّه تارةً يكون على يقين فيقول جازماً: ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وأُخرى يقول بغير وثوق: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فهي دعوى خاطئة نشأت عن القصور في فهم سياقات الكلام العربي فإنَّ قول موسى لأهله في كلا الفقرتين من الآيات الثلاث لا يدلُّ على وثوقه ويقينه بأنَّه سيأتيهم من موضع النار بخبر بل الظاهر من كلا الفقرتين أنَّ موسى كان يرجو من مسيره إلى النار أنْ يأتي أهله منها بخبر، ولم يكن على يقينٍ من بلوغ هذه الغاية وهذه الأمنية.

موسى عليه السلام لم يكن جازماً في كلا الآيتين:

أما ظهور ذلك من الفقرة الثانية المشتملة على كلمة "لعلّي" فمُسلَّمٌ عند مثير الشبهة، وأما ظهور الفقرة الأولى في عدم اليقين فمنشؤه التردُّد المستفاد من حرف العطف "أو"، فالآية لم تكن مقتصرة على فقرة: ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ حتى يُدَّعى ظهورها في أنَّ موسى كان جازماً بتحقُّق ذلك منه بل إنَّها عطفت على هذه الفقرة فقرةً أُخرى بواسطة حرف التردُّد المُفيد للشك وعدم اليقين فقالت: ﴿أَوْ أَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ ومقتضى ذلك انَّ مفاد الآية هو انَّه: إنْ لم يتيسر ليَ الوقوف عند موضع النار على الخبر الذي ننشده فلا أقلَّ من أنِّي أحمل لكم شعلةً من تلك النار كيما تصطلون بها. فهو إذن لم يكن جازماً انَّه سيحمل إلى أهله خبراً من موضع النار وإنَّما كان راجياً ومؤمِّلاً لذلك.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الرابعة والعشرون

نجى فرعون من الغرق أو لا؟!

الشبهة الرابعة والعشرون

نجى فرعون من الغرق أو لا؟!

يخاطب الرّب فرعون بعد أن طارد اليهود حتى بلغوا البحر، وقبل أن يغرق هذا الطاغية مع الغارقين، يُخاطبه الرّب قائلاً: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[1] ويترتّب على هذا أنّ الله نجّى فرعون من الغرق...! لكن القرآن يقول في آيةٍ أخرى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[2] وفي مورد ثانٍ: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾[3] وفي موردٍ ثالث: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[4]!! فأيُّ القصتين نُصدق؟هل أغرق الله فرعون في البحر أم أنقذه ليتركه آية لمن يريد أن يتعظ...!

١- سورة يونس الآية/٩٢.

٢- سورة القصص الآية/٤٠.

٣- سورة الإسراء الآية/١٠٣.

٤- سورة الزخرف الآية/٥٥.

الجواب

لا تنافي بين الغرق ونجاة البدن:

لا ريب في انّ فرعون كان قد هلك بالغرق في اليمّ فيمَن غرق كما هو صريح الآيات الكثيرة الواردة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾[1].

وأما قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[2] فهو ليس ظاهراً في بقاء فرعون على قيد الحياة وإنَّما هو ظاهرٌ في عدم تلاشي جسد فرعون بعد حادثة الغرق وعدم فقدانه أو تغيُّر معالمه بحيث يصعب التعرُّف على انتسابه لفرعون.

فمفاد الآية المباركة انّ جثة فرعون قد نجت وسلمت فرآها بنو إسرائيل وهي طافية على الماء أو رأوها بعد أن قذفتها الأمواج إلى الساحل فتعرَّفوا على انتسابها لفرعون دون أن ينتابهم من ذلك شك،

١- سورة الإسراء الآية/١٠٣.

٢- سورة يونس الآية/٩٢.

فكان في ذلك عظة لهم وحتى لا تذهب بهم الأوهام إلى انَّه لم يكن في المغرقين نظراً لاستعظامهم شأنه واستبعادهم لموته حيثُ كان يدَّعي لنفسه الربوبية.

فكان في نجاة بدنه من التلف ورؤيتهم له وهو جثة هامدة لا حياة فيها سدٌ لكل طريق قد يتسرَّب منه وَهمٌ يكون مثاراً للشبهات في وسط مجتمعٍ وعى للدنيا وفرعون فيها يملك الحرث والنسل والموت والحياة بحسب زعمه وما أصَّل له من ثقافة.

الروايات الشريفة تُعلِّل نجاة بدن فرعون

ولهذا ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنَّه قال: "واما فرعون فنبذه الله وحده فألقاه بالساحل لينظروا إليه وليعرفوه ليكون لمن خلفه آية ولئلا يشك أحد في هلاكه وانَّهم كانوا اتَّخذوه ربَّاً فأراهم الله إياه جيفةً ملقاة بالساحل ليكون لمَن خلفه عبرة وعظة"[١].

وقال علي بن إبراهيم: قال الصادق عليه السلام: "فانَّ موسى عليه السلام أخبر بني إسرائيل انَّ الله قد أغرق فرعون فلم يُصدِّقوه فأمر اللهُ البحر فلفَظَ به على ساحل البحر حتى رأوه ميتاً"[٢].

١- تفسير القمي -علي بن إبراهيم القمي- ج١ ص٣١٦.

٢- تفسير القمي -علي بن إبراهيم القمي- ج١ ص٣١٦.

مفاد الآية نجاة البدن وليس نجاة الذات

والمتحصَّل انَّ مفاد الآية المباركة انَّ النجاة كانت لجثة فرعون ولم تكن لحياته كما هو واضح لكلٍّ مَن له أدنى فهمٍ بلغة العرب، فإنَّ النجاة قد نُسبت لبدن فرعون ولم تُنسب لفرعون ذاته.

فلو كان المراد من الآية هو نجاة فرعون وحياته لكان المتعيَّن في لغة العرب ان تُنسب النجاة لذات فرعون لا إلى بدنه فيقال مثلاً: فاليوم ننجِّيك لتكون لمَن خلفك آية، فلا معنى لإضافة كلمة البدن لو كانت النجاة للحياة بل لا محلَّ لها، لأنَّها تُنتج صرف المعنى من نجاة الذات إلى نجاة خصوص البدن.

القرآن يُفرِّق بين نجاة الذات ونجاة البدن

ولهذا نجد القرآن في آياتٍ كثيرة أسند النجاة إلى الذات حين كان مراده نجاة الحياة كما في قوله تعالى يحكي ما وقع لنوحٍ عليه السلام واللذين آمنوا معه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾[2] وقال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

١- سورة الأعراف الآية/٦٤.

٢- سورة الأعراف الآية/٧٢.

الْمَشْحُونِ﴾[1] فهو تعالى قد أسند النجاة في الآيات المذكورة إلى ذات نوح والذين معه ولم يُسندها إلى أبدانهم.

وكذلك هو ما حكاه عن لوط عليه السلام وأهله، قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[2] ولم يقل فأنجيناه ببدنه.

وقال تعالى يُخبر عمَّا وقع لإبراهيم عليه السلام حين أزمع قومُه قتله أو إحراقه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾[3].

وقال تعالى يحكي ما وقع لأحد الرجلين اللذَين صَحِبا يوسف عليه السلام في السجن وهو الذي كان يسقي ربَّه خمراً: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[4] فقد أسند النجاة إلى ذات الرجل نظراً لكونه قد نجا من القتل بخلاف الآخر حيث صُلِب فأكلت الطيور من رأسه.

١- سورة الشعراء الآية/١١٩.

٢- سورة النمل الآية/٥٧.

٣- سورة العنكبوت الآية/٢٤.

٤- سورة يوسف الآية/٤٥.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[٣].

فكلٌ هذه الآيات وآياتٌ أخرى أسندت النجاة إلى الذوات حين كان المراد منها نجاة الحياة من الهلاك والموت، أما حين يكون متعلّق النجاة غير الحياة فإنَّه يتمُّ التنصيص عليه كما هو مورد البحث أعني نجاة بدن فرعون.

التفاتة أخيرة

على انَّه لو كانت حياة فرعون قد سلمت ونجت من الموت والهلاك فإنَّ من المحتَّم نجاة بدنه، لذلك يكون من اللغو الإشارة إلى نجاة البدن بعد الإخبار عن بقاء الحياة، وعلى خلاف ذلك نجاة البدن فإنَّه لا يُلازم

١- سورة هود الآية/٥٨.

٢- سورة هود الآية/٦٦.

٣- سورة هود الآية/٩٤.

بقاء الحياة، فكثيراً بل غالباً ما يتأخَّر تلفـُ البدن وتلاشيه عن زهاق الروح.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الخامسة والعشرون

قارونُ من قوم موسى أو من قوم فرعون؟

الشبهة الخامسة والعشرون

قارونُ من قوم موسى أو من قوم فرعون؟

يقول القرآن في سورة العنكبوت: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾[1] فما نجِده في هذه الآية أنَّ قارون مع فرعون وهامان أي من قومهم، وفي سورة المؤمنون ٤٤-٤٨ نجد فريقين أمام بعضهم الفريق الأول موسى وهارون والفريق الثاني فرعون وملئِه، ولكنَّ ما نجده في سورة القصص مناقضاً حيث ذكرت انَّ قارون من قوم موسى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾[2] فمَن ينتمي لمَن يا ترى؟

١- سورة العنكبوت الآية/٣٩.

٢- سورة القصص الآية/٧٦.

الجواب

مغالطة واهية!

هذه الشبهة لا تعدو المغالطة الواهية التي لم يُحسن صاحبُها الحَبْك في الصياغة لها، فهي قد بَنَت الحكم بالتناقض على فهمٍ للآية من سورة العنكبوت لا يُمكن حمله إلا على تعمُّد الإيهام، إذ من المُستبعد جداً أنْ ينشأ مثل هذا الفهم عن قناعةٍ أو حتى عن احتمالٍ يعتدُّ العقلاءُ بمثله.

فهو قد فرض انَّ الآية من سورة العنكبوت وهي قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ تدلُّ على انَّ قارون كان من قوم فرعون أي من القبيلة التي ينتمي إليها فرعون نسباً، وبنى على ذلك انَّ الآية حينئذٍ تكون مناقضة لما ورد في سورة القصص من انَّ قارون كان من قوم موسى أي انَّه كان من بني إسرائيل كما كان موسى عليه السلام من بني إسرائيل.

فالآية من سورة القصص، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ وإنْ كانت واضحة في انَّ قارون كان من بني إسرائيل إذ انَّ موسى عليه السلام من بني إسرائيل إلا انَّ الآية من سورة العنكبوت ليس لها ظهور بل ولا حتى إشعار بأنَّ قارون كان من قوم فرعون حتى يُدَّعى منافاتها لما ورد في سورة القصص.

فغاية ما تقتضيه الآية من سورة العنكبوت هو انَّ قارون وفرعون وهامان كانوا في عهد موسى عليه السلام وانَّه جاءهم بالهدى وبرهن لهم على صدق دعوته بالعديد من البيِّنات إلا انَّهم استكبروا فلم يُذعنوا لما جاءهم به من البيِّنات، لذلك استحقُّوا العذاب، فلم يكونوا كما لم يكن غيرهم سابقين أي لم يكن علوُّهم المزعوم موجباً لفواتهم وخلاصهم من عذاب الله جلَّ وعلا.

منشأ ذكر قارون مع فرعون وهامان

هذا هو ما يقتضيه مفاد الآية من سورة العنكبوت، فهي لم تكن بصدد التصنيف والبيان للنسب الذي ينتمي إليه هؤلاء الثلاثة المذكورون في الآية، ومن الواضح البيِّن أنَّ ذكرهم في عرضٍ واحد لا يعني انَّهم ينحدرون من نسبٍ واحد على انَّ الآية ظاهرة فيما هو منشأ ذكرهم في سياقٍ واحد، حيث أفادت انَّ هؤلاء الثلاثة يشتركون في انَّهم كانوا في

عهد موسى عليه السلام وانّه قد جاءهم بالبينات فاستكبروا، فذلك هو منشأ ذكرهم في سياقٍ واحد.

ما هو الوجه في ذكر قارون ضمن مَن بُعث إليهم موسى عليه السلام؟

وما قد يقال انَّ قارون إذا لم يكن من قوم فرعون فما وجه ذكره فيمن بُعث إليهم موسى عليه السلام بالبيِّنات، وموسى إنَّما بعث بالبيِّنات إلى فرعون وملئِه كما أفاد ذلك قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾[1].

فجوابه:

أولا: موسى عليه السلام بُعث لبني اسرائيل أيضاً:

انَّ موسى عليه السلام لم يُبعث بالبيِّنات إلى فرعون وملئه فحسب بل بُعث بالبيِّنات إلى بني إسرائيل أيضاً كما أفاد ذلك القرآن الكريم في موارد عديدة:

١- سورة المؤمنون الآيات/٤٥-٤٨.

منها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٤].

مثالٌ توضيحي:

فما أفادته الآيات من سورة المؤمنون وكذلك غيرها من انَّ موسى عليه السلام بُعث إلى فرعون وملئه ليس فيه دلالة بل ولا إشعار بأنَّ موسى عليه السلام لم يُبعث لغيرهم كما هو أوضح من أنْ يخفى، فحينما يُقال: بعث السلطان رسوله إلى والي بغداد، فإنَّ ذلك لا يدلُّ على انَّه لم يبعثه

١- سورة البقرة الآية/٩٢.

٢- سورة الإسراء الآية/١٠١.

٣- سورة الإسراء الآية/ ٢.

٤- سورة السجدة الآية/٢٣.

إلى والي دمشق أيضاً، لذلك لو جِيء بخبرٍ آخر مفاده انَّ السلطان بعث رسولَه نفسه إلى والي دمشق فإنَّ أحداً لا يجد تنافياً بين الخبرين بل يفهم من مجموع الخبرين انَّ السلطان قد بعث رسوله إلى كلٍّ من والى بغداد ووالي دمشق.

فإخبار الآيات من سورة المؤمنون بأنَّ موسى عليه السلام قد بُعث إلى فرعون وملئه وإخبار الآية من سورة العنكبوت بأنَّ موسى عليه السلام بعث إلى قارون وفرعون وهامان لا يقتضي الظهور في انَّ قارون من ملئ فرعون وبذلك يكون من قومه، فإنَّ موسى عليه السلام كما بُعث لفرعون وملئه فإنَّه بُعث أيضاً إلى بني إسرائيل.

فخلاصة القول هو إنَّ ذكر قارون ضمن من بُعث إليهم موسى عليه السلام لا يدلُّ على انَّ قارون كان من قوم فرعون، باعتبار انَّ من بُعث إليهم موسى عليه السلام هم فرعون وملئه، وذلك لأنَّ موسى عليه السلام كما بُعث لفرعون وملئه فإنَّه قد بعث أيضاً إلى بني إسرائيل.

ثانيا: قارون مِن ملأ فرعون أيضاً:

إنَّ الآيات من سورة المؤمنون لم تقل إنَّ الله قد بعث موسى إلى فرعون وقومه أو إلى فرعون وآل فرعون وإنَّما أفادت انَّ موسى عليه السلام بُعث إلى فرعون وملئه، وملأُ فرعون هم أتباعه وأجناده، وليس من الضروري أنْ يكون كلُّ أتباع فرعون وأجناده من بني قومه المنتمين إليه

نسباً بل لا يتفق ذلك غالباً، ولذا فقد يكون في أتباعه رجالٌ من بني إسرائيل، فلا موجب لاستظهار انَّ كلَّ مَن كان من ملئِ فرعون فهو من قومه.

قارون ليس من قوم فرعون

ثم إنَّ هنا مؤيداً آخر على انَّ قارون لم يكن من قوم فرعون المنتمين له نسباً وهو انَّ قوم فرعون قد غرقوا جميعاً في اليَمِّ كما أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] ومن الواضح انَّ قارون لم يكن هلاكه بالغرق، ذلك لأنَّ القرآن قد صرَّح بأنَّ قارون خُسِفتْ به وبداره الأرض، فابتلعته وما كان يملك من كنوزٍ وأموال قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[3] إلى

١- سورة الزخرف الآية/٥١.

٢- سورة الزخرف الآيات/٥٣-٥٥.

٣- سورة القصص الآية/٧٦.

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[١].

خلاصةٌ ومزيدُ بيان:

وكيف كان فيكفي لنفي دعوى التناقض انَّ ما بُنيت عليه هذه الدعوى كان واضح الفساد، فهي قد بُنِيت على انَّ الآية من سورة العنكبوت مقتضية لإفادة انَّ قارون كان من قوم فرعون، وهذا الاقتضاء ليس له وجه سوى ما توهَّمه صاحب الشبهة من انَّ ذكر قارون في سياق ذكر فرعون وهامان معناه انَّ قارون كان من قوم فرعون، وتبيَّن ممَّا تقدم انَّ التعداد لأشخاصٍ في سياقٍ واحد لا ظهور له بل ولا إشعار بأنَّهم ينتمون إلى نسبٍ واحد، والآية لم تكن بصدد التصنيف لأنساب المذكورين، فهي لا تدلُّ حتى على انَّ هامان من قوم فرعون المنتمين له نسباً فضلاً عن قارون.

والآية إنَّما ذكرت هؤلاء الثلاثة في سياقٍ واحد لأنَّهم الجبابرة اللذين كانوا في عهد موسى عليه السلام ففرعون كان يدَّعي انَّه الربُّ الأعلى، وهامان كان وزيره الأول والأكثر نفوذاً في مملكة فرعون، وأمَّا قارون فكان ثرياً طاغياً، وقد بلغ من ثرائه انَّ مفاتيح الخزائن لكنوزه يشقُّ حملها مجتمعةً

١- سورة القصص الآية/٨١.

على العُصبةِ من أولي القوة، فهؤلاء الجبابرة الثلاثة كانوا في عهد موسى عليه السلام وكلٌ منهم قد أصابه عذابٌ من الله تعالى بعد أنْ دعاهم موسى عليه السلام فاستكبروا، فحيث انَّ الآيات من سورة العنكبوت التي وقعت الآية مورد البحث في سياقها كانت بصدد التعداد لمَن بعث الله تعالى لهم رسلاً فاستكبروا وما استجابوا مثل قوم لوط وقوم شعيب وعاد وثمود لذلك ذكر الله تعالى هؤلاء الثلاثة اللذين كانوا في عهد موسى ضِمن من بُعث إليهم رسلاً فاستكبروا فوقع عليهم العذاب، ثم تصدَّت الآية التي بعد الآية مورد البحث للإشارة إلى كيفيَّة ما أصاب كلٌ هؤلاء اللذين ورد ذكرهم في الآيات فأفادت انَّ منهم مَن حُصبوا بحجارةٍ من السماء، وهم قوم لوط، ومنهم من أخذته الصيحة، وهم قوم شعيب وقوم عاد وقوم ثمود، ومنهم من خُسفت به الأرض، وهو قارون، ومنهم مَن تمَّ إغراقه في البحر، وهما فرعون وهامان، قال تعلى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[1] إلى أنْ قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ

١- سورة العنكبوت الآية/٢٨.

٢- سورة العنكبوت الآية/٣٦.

وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾[1]

ثم قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2] فهذا هو منشأ ذكر قارون في سياق ذكر فرعون وهامان.

وجهٌ آخر لمنشأ الشبهة:

ولعلَّ صاحب الشبهة قد توهَّم انَّ قوله تعالى من سورة القصص: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ معناه انَّ قارون كان ممَّن آمن بموسى عليه السلام لذلك تكون الآية منافية لقوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾.

١- سورة العنكبوت الآيتان/٣٨-٣٩.

٢- سورة العنكبوت الآية/٤٠.

الجواب:

هل آمن قارون؟

فلو كان هذا هو مقصوده فجوابه إنَّ إخبار الآية بأنَّ قارون كان من قوم موسى عليه السلام لا يُساوق الإخبار بإيمانه كما هو واضح، ثم إنَّ بني إسرائيل لم يكن جميعُهم قد آمن بموسى عليه السلام كما أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[١] فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ إلى تمام الآيات هو انَّ قارون كان من بني إسرائيل فكان ينتمي نسباً لموسى عليه السلام لكنَّه بغى وتطاول واستكبر على قومه، وهم بنو إسرائيل، فكان يخرج عليهم في زينته متبختراً، لأنَّه أوتي من الكنوز ما يشقُّ حمل مفاتيح خزائنها على العُصبة من الرجال، وكان يرى انَّ الكنوز التي بيده لم تكن من عطاء الله تعالى وإنَّما جمَعها بجهده واختصَّ بها لعلمه وفطنته: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[٢] وذلك من الكفر لأنَّه قال ذلك جواباً لمَن نصحه من قومه بقوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾[٣] فهو ينفي

١- سورة يونس الآية/٨٣.

٢- سورة القصص الآية/٧٨.

٣- سورة القصص الآية/٧٧.

بجوابه ذلك الربوبيَّة لله تعالى، ويرى لنفسه الاستقلاليَّة في التدبير، ولهذا عقَّبت الآية على جوابه بالاستنكار الشديد فقال تعالى بعد قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[1] هذا هو مفاد الآيات من سورة القصص، فهي إن لم تكن ظاهرة في كفره، فإنَّه ليس فيها ما يقتضي استظهار إيمانه.

حتى لو آمن فلا تناقض

ولو سلَّمنا جدلاً بأنَّ الآية من سورة القصص ظاهرةٌ في انَّ قارون كان قد آمن بموسى عليه السلام فإنَّ الالتزام بذلك غير ضائر، فيُمكن القبول بأنَّ قارون كان قد آمن بموسى عليه السلام ثم عاد فبغى واستطال واستكبر حينما مُنح الكنوز والثروة الطائلة كما صرَّحت بذلك الآيات من سورة القصص، فيكون شأنه في ذلك شأن السامري الذي كان قد آمن بموسى عليه السلام ثم صنع العجل ودعى الناس إلى عبادته من دون الله تعالى.

فليس بين الآية من سورة القصص والآية من سورة العنكبوت تنافٍ بل بينهما تمام الملائمة، فإنَّ الآية من سورة العنكبوت أفادت انَّ منشأ الهلاك الذي وقع على قارون هو استكباره في الأرض: ﴿وَقَارُونَ

١- سورة القصص الآية/٧٨.

وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾(١) وكذلك فإنَّ الآية من سورة القصص والآيات التي تليها أفادت انَّ منشأ هلاك قارون هو استكباره في الأرض وبغيه وطغيانه، وأما انَّه كان قد آمن بموسى عليه السلام أولم يكن قد آمن، فذلك مما لا أثر له لأنَّ الآية من سورة القصص لو كانت ظاهرة في أنَّه كان قد آمن بموسى عليه السلام فإنَّها تُثبت في ذات الوقت انَّه في منتهى أمره قد بغى واستكبر وطغى وتمرَّد على ما جاء به موسى عليه السلام فكان ذلك هو منشأ هلاكه، والآية من سورة العنكبوت لا تنفي تلبُّسه بالإيمان آناًما وإنَّما تُثبت استكباره وانَّ ذلك هو منشأ هلاكه، وهذا ما تُثبته الآيات من سورة القصص أيضاً. فما تُثبته الآية من سورة العنكبوت تُثبته الآيات من سورة القصص أيضاً، وما يُفترض انَّ الآية من سورة القصص قد أثبتته فإنَّ الآية من سورة العنكبوت لا تنفيه.

وهكذا فإنَّ الآية من سورة غافر والتي هي صريحة في كفر قارون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إلى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾(٢) لا تمنع من إمكانيَّة تلبسُّه بالإيمان بموسى بعد مبادرته للكفر واتِّهامه لموسى عليه السلام بالكذب، فيكون قد بادر إلى الكفر

١- سورة العنكبوت الآية/٣٩.

٢- سورة غافر الآيتان/٢٣-٢٤.

فيمَن بادروا ثم لمَّا هلك فرعون وقومه بالغرق تلبَّس بالإيمان لأنَّه لم يجد مندوحةً عن ذلك، وحين صارت له الكنوز والثروة الطائلة طغى وبغى وتمرَّد على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه، فإنَّ كلَّ ذلك لا تنفيه الآَية من سورة غافر ولا الآَية من سورة العنكبوت.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة السادسة والعشرون

شارك هارون ؑ في عبادة العجل أو لم يُشارك؟!

الشبهة السادسة والعشرون

شارك هارونُ في عبادة العجل أو لم يُشارك؟!

تضاربت آياتُ القرآن في مشاركة هارون لبني إسرائيل في عبادة العجل الذهبي، فالمذكور في الآية تسعين من سورة طه انَّه لم يُشارك ولكنَّ المذكور في سورة الأعراف في الآية الحادية والخمسين ومائة هو انَّه شاركهم في عبادة العجل، والمستفاد من الآية الثانية والتسعين من سورة طه هو انَّ هارون سمح لبني إسرائيل في عبادة العجل الذهبي، فما هو الحق في ذلك هل شارك أولم يشارك أو انَّه سمح ولم يشارك؟

الجواب

مقدِّمة: دعوى جزافيَّة:

دعوى التضارب في الشأن المذكور بين آيات القرآن أشبهُ بالأُمنية منها إلى الدعوى التي عادةً ما تكون مبتنية على الملاحظة المتأنية المقتضية على أقلِّ تقدير لوقوع الظنِّ في نفس المدَّعي بصوابيَّة دعواه، فحتى لو لم تصمد مثل هذه الدعوى بعد عرضها أمام النقد لكنَّها تبقى محلًّا لتفهُّم الخصم إيرادَها من خصمه، وأما الدعوى الجزافيَّة التي لم يكلِّف مدَّعيها نفسه بأدنى مراتب التأمُّل فحقُّها أنْ تُعدَّ من الأماني، لأنَّ مثلها لا تصدر إلا عن رغبةٍ يتمنَّى صاحبها لو انَّها متحقِّقة، وهذه الرغبة إمَّا أنْ تبلغ في نفسه حدّاً يترتَّب عنها السقوط في شَرَك الوهم فيراها وقد وقعت وصار بوسعه الحديث عن وقوعها، وإمَّا انْ لا تبلغ به الرغبةُ مستوى الانفصام والذهول عن الواقع ولكنَّه رغم ذلك يدَّعي وقوعها لحرصه على أنْ يظهر أمام خصمه أو مَن يُحب في مظهر الواجد لهذه الرغبة.

المحور الأول: الكلام في دعوى المشاركة:

وعلى أيٍّ تقدير فدعوى التضارب في الشأن المذكور بين الآيات المشار إليها لا تعدو الوهم أو تعمُّد الإيهام، فالآية من سورة الأعراف المدَّعى ظهورها في مشاركة هارون عليه السلام لبني إسرائيل في عبادة العجل هي قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

تحرير الدعوى:

والتقريبُ لدعوى استظهار المشاركة في عبادة العجل من الآية المباركة هو انَّ دعاء موسى عليه السلام لأخيه بالمغفرة وقع بعد رجوعه من ميقات ربِّه ومشاهدته لما أحدثه بنو إسرائيل من عبادة العجل وتوبيخه لهم ولأخيه هارون، بعدئذٍ وفي ظلٍّ هذه الأجواء وقع الدعاء منه لأخيه بالمغفرة، وذلك ما يُعبِّر عن انَّ هارون كان قد اجترح ذنباً استرعى من أخيه موسى انْ يدعو له بالمغفرة، وليس من ذنبٍ يتناسب وهذه الأجواء سوى انَّ هارون كان قد شارك بني إسرائيل في عبادة العجل.

١- سورة الاعراف الآية/١٥١.

جوابُ الدعوى:

أولاً: كيف شاركهم وهم قد استضعفوه حتى كادوا أن يقتلوه؟!

فهذا هو أفضل ما يُمكن أنْ تُقرَّب به دعوى دلالة الآية على مشاركة هارون لبني إسرائيل في عبادة العجل، ورغم ذلك فإنَّه وبأدنى تأمُّل يتَّضح انَّ هذه الدعوى في غاية السقوط، فحتى لو سلَّمنا جدلاً انَّ الدعاء بالمغفرة لا يكون إلا عن ذنبٍ كان قد ارتُكب فإنَّ من غير المحتمل انْ يكون ذلك الذنب هو العبادة للعجل، إذ انَّ الآية التي سبقت هذه الآية دون فصل تنفي هذا الاحتمال بما لا يدع مجالاً للريب، وذلك لشدَّة وضوحها، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

فالآيةُ أفادت انَّ بني إسرائيل كانوا قد استضعفوه واستصغروه، وكادوا يقتلونه، وهو ما يعني شدَّة غيظهم منه حتى انَّه بلغ منهم حدّاً حملهم على انْ يهمُّوا بقتله، وهذا لا يكون منهم لولا انَّه مانعهم وعارضهم بل

١- سورة الاعراف الآية/١٥٠.

يظهر من الآية المباركة انَّ معارضته لهم كانت من الشدَّة بحيث انَّهم قد همُّوا بقتله، ولا يهمُّ أحدٌ بقتل آخر هو بحجم هارون ووجاهته لولا الغيظُ الذي انتابهم من موقفه، ولولا الشعور المتعاظم منهم بأنَّ وجوده قد يحول دون بلوغهم لمأربهم الذي عقدوا العزم على مقارفته.

وهو ما يكشف عن شدَّة الممانعة التي أبداها نبيٌّ الله هارون عليه السلام لبني إسرائيل، وحينئذٍ كيف يسوغ لأحدٍ يحترم عقله أنْ يحتمل مشاركة هارون لبني إسرائيل في عبادة العجل، فلماذا إذن استضعفوه واحتقروه وأرادوا قتله لو كان قد مالئهم على ما اجترحوه من ذنبٍ عظيم ؟!! أليس مقتضى الممالئة من مثل هارون في مثل هذه القضية هو انْ يسترعي ذلك منهم الاحتفاء به واتخاذه واحداً من وسائل التضليل، نظراً لمقامه فيهم وكونه أخاً لموسى وشريكا له في دعوته؟!!

ثانياً: هارون عليه السلام يُصرِّح بأنَّهم أعداءٌ و ظالمون!

ثم لماذا عبَّر عنهم هارونُ في الآية بالأعداء لو كان قد شاركهم في عبادتهم للعجل؟! أليس التعبير عنهم بالأعداء يكشف عن أنَّه كان قد ناوءهم وصارمهم وأبغضهم لسوء صنيعهم؟

هذا وقد وصف هارونُ في ذات الآية اللذين عبدوا العجل بالظالمين مضافاً إلى وصفه لهم بالأعداء قال تعالى على لسانه: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فوصفُه لهم بالظالمين يعني أنَّه

ينئى بنفسه عنهم، ويراهم قد اجترحوا ما يستحقون عليه النعت بالظالمين، فلو انَّه كان قد شاركهم في هذا الوزر لكان مثلهم مستحقاً لهذا النعت ولما صحَّ له أن ينئى بنفسه عنهم.

لماذا دعى موسى عليه السلام لأخيه بالمغفرة؟

فهذه الآية تكشف بما لا يدع مجالا للشك عن انَّ دعاء موسى عليه السلام لأخيه بالمغفرة لم ينشأ عن دعوى مشاركته لبني إسرائل في عبادة العجل، فلو سلَّمنا جدلاً انَّ هارون كان قد ارتكب ذنباً استرعى من أخيه موسى ان يدعوَ له بالمغفرة فإنَّ من المحتَّم انَّ ذلك الذنب لم يكن هو المشاركة لبني إسرائيل في عبادة العجل كما اتَّضح مما تقدم، فلعلَّ ذلك الذنب هو عدم الشدَّة في مقارعتهم لخشيته من وقوع الفتنة مع افتراض انَّ هذا التقدير منه كان خاطئاً أو انَّ الذنب هو عدم خروجه من مجتمعهم بعد أن وجد نفسه عاجزاً عن ردعهم مع افتراض انَّ هذا التقدير كان خاطئاً أيضاً، فإذا افترضنا أنَّ ذنباً كان قد صدر من هارون عليه السلام فلا بدَّ ان يكون من هذا القبيل، ويُؤيده ما ورد في سورة طه على لسان هارون حين كان يبرِّر لأخيه ما كان قد اتخذه من موقفٍ تجاه ما أحدثه بنو إسرائيل من عبادة العجل: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ

قَوْلِي﴾[١] فظاهر الآية انَّه كان يعتذر عن عدم مقارعتهم أو عدم الانفصال بمَن اتَّبعه عنهم بأنَّه كان يخشى من تقريع موسى له بعد ذلك واتِّهامه له بأنَّه تسبَّب بموقفه ذلك في إحداث الفرقة بين بني إسرائيل ولم ينتظر بهم ريثما يرجع موسى من ميقات ربِّه وهو معنى: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

فلو سلَّمنا جدلاً بأنَّ الدعاء لهارون بالمغفرة كان لذنبٍ ارتكبه فذلك الذنب هو طبيعة الموقف الذي اتَّخذه من بني إسرائيل حيثُ لم يكن هو الموقف الأنسب، فهو وإنْ كان قد وعظهم وحذَّرهم الافتتان عن دين الله تعالى ودعاهم إلى طاعته لكنَّه لم يتشدَّد مثلاً في مقارعتهم كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[٢].

فعدم التشدُّد في مقارعتهم واتِّخاذ خيار التريُّث في الأمر حتى يرجع موسى من ميقات ربِّه لمَّا لم يكن هو الخيار الأنسب لذلك اقتضى الأمر انْ يتصدَّى موسى عليه السلام للدعاء إلى أخيه بالمغفرة.

١- سورة طه الآية/٩٤.

٢- سورة طه الآية/٩٠.

لا ملازمةَ بين الدعاء بالمغفرة وصدور الذنب:

كلُّ ذلك مبنيٌّ على التسليم بالملازمة بين الاستغفار وصدور الذنب، وأمَّا لو تمَّ الإنكار لدعوى الملازمة فإنَّ استظهار صدور الذنب من هارون لمجرَّد الدعاء له من أخيه بالمغفرة يسقط من أساسه، وذلك هو الصحيح، إذ لا دليل على الملازمة بين الاستغفار وصدور الذنب وإنَّه كلما دعا أحدٌ لنفسه أو لغيره بالمغفرة كان ذلك كاشفاً عن صدور ذنبٍ من المدعو له، ولو صحَّ ذلك لَلَزم انْ يكون موسى عليه السلام قد ارتكب في تلك الواقعة ذات الذنب الذي ارتكبه هارون او انَّه ارتكب غيره في تلك الواقعة، لأنَّه حين دعا بالمغفرة لم يدعُ لهارون وحده بل دعا لنفسه ولأخيه هارون: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1] فأيُّ ذنبٍ كان قد ارتكبه موسى عليه السلام في تلك الواقعة حتى يدعوَ لنفسه بالمغفرة ويكون دعاؤه كاشفاً عن صدور ذلك الذنب منه ؟!!

على انَّه قد وردت في القرآن آياتٌ عديدة اشتملت على دعاء الأنبياء لأنفسهم بالمغفرة على غير ذنب ارتكبوه، فأيُّ ذنبٍ قد إرتكبه نوحٌ عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ

١- سورة الاعراف الآية/١٥١.

والْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[١] وأيُّ ذنب ارتكبه إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٢] فليس من ذنبٍ قد ارتكبه مثل إبراهيم الخليل شيخ الأنبياء عليه السلام ورغم ذلك فإنَّه كان يدعو لنفسه بالمغفرة.

هذا وقد قام الدليل القطعي على عصمة الأنبياء من الذنوب، فدليلُ عصمتهم مع صدور الاستغفار منهم دليلٌ في حدٍّ ذاته على سقوط دعوى الملازمة بين الاستغفار وصدور الذنب، ثم إنَّه إذا كان الأنبياء معصومين وقد ثبت من القرآن انَّ هارون عليه السلام كان نبيًّا كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[٣] فحيث انَّ هارون عليه السلام كان نبيًّا لذلك فهو معصومٌ عن الذنب، فاستغفار موسى لهارون لا يكشف إذن عن ارتكابه ذنباً بعد ثبوت عصمته بمقتضى نبوّته.

ثم إنَّه يكفي لسقوط دعوى الملازمة بين الاستغفار وصدور الذنب عدمُ الدليل على ثبوتها، فليس من آيةٍ ولا نصٍ نبوي ولا اقتضاءٍ عقلي دلَّ على انَّ ثمة ملازمةً بين الدعاء بالمغفرة وبين صدور الذنب من المدعو له.

١- سورة نوح الآية/٢٨.

٢- سورة إبراهيم الآية/٤١.

٣- سورة مريم الآية/٥٣.

بحث في دواعي الدعاء بالمغفرة (الاستغفار):

١- الاستغفار عن مخالفة الأولى:

فالدعاء بالمغفرة كما يكون عن الذنب يكون عن مخالفة الأولى، فإذا صحَّ احتمال انَّ الخيار الذي اعتمده نبيُّ الله هارون عليه السلام مع بني إسرائيل في مقام ردعهم عن عبادة العجل لم يكن هو الخيار الأنسب، وكان الأنسب هو المبادرة إلى مصارمتهم والتشدُّد في مقارعتهم، فحيثُ انَّه اختار غير الأنسب لذلك استغفر له موسى عليه السلام، فالاستغفار في الفرض المذكور لم يكن عن ارتكاب ذنبٍ وإنَّما كان عن مخالفةٍ لما هو الأنسب والأولى، فإنَّ مثل هذا الفرض مما يتَّجه ويحسن فيه الاستغفار.

٢- الاستغفار عن التقصير:

وكذلك يحسن الاستغفار عن التقصير غيرِ البالغ حدَّ الذنب، فالمؤمن ونظراً لمعرفته عظيمَ حقِّ الله تعالى عليه يرى نفسه مقصِّراً في أداء حقِّه جلَّ وعلا لذلك فهو يشعر بالحياءِ والخجل من ربِّه، فرغم النعم الإلهية المتعاظمة التي يرفلُ فيها والتي هي مستوعبةٌ لمطلق وجوده فإنَّه قد يغفل عن ربِّه أو يضعف عن أداء بعض ما ندبَ إليه من نوافل، لذلك فهو حين ينتبه من غفلته ينتابه شعورٌ بالتأنيب، وهذا الشعور يتعاظمُ في قلبه كلَّما ازداد إيمانه ويقينُه بربِّه أو كان أكثر استحضاراً لعظيم آلائه وجزيل نعمه عليه، فمثلُه يشعر بالتأنيب ووخز الضمير حتى

لو كان يبذل في عبادة ربِّه قصارى جهده، لذلك فهو يلجأ للاستغفار لأنَّه يجد في الاستغفار راحةً تخفِّفُ عنه غلواءَ الشعور بالتأنيب، فمثلُ هذا الاستغفار لم ينشأ عن ذنبٍ ومخالفةٍ لأمرٍ مولَوي، وإنَّما نشأ عن شعوره بأنَّ حقَّ ربِّه عليه أكثرُ ممَّا يبذُلُ له من عبادة وانَّه عاجزٌ عن ردِّ شيءٍ من جزيل إحسانه إليه.

ومثلُ هذه الحالة التي يكون عليها المؤمن تجاه ربِّه تحصل كثيراً لذوي الذوق مع مَن بالغ في الإحسان إليهم، فهم يشعرون تجاهه بالامتنان ويرون أنفسهم عاجزين عن أداءِ حقِّه رغم انَّه لا ينتظر منهم ردَّ الجميل لكنَّهم رغم ذلك يُكثرون من الاعتذار إليه على تقصيرهم أو عجزهم عن مجازاته على إحسانه إليهم، فهم يشكرونه تارةً ويعتذرون إليه تارةً أخرى رغم انَّهم لم يُسيئوا إليه لكنَّ شعورهم بالامتنان هو ما يدفعهم للاعتذار، فالاعتذار والاستغفار عن غير ذنبٍ أمرٌ عرفي يتعاطاه ذوو الذوق الرفيع مع مَن يُحسن إليهم.

٣- الاستغفار للتقرّب:

وكذلك فإنَّ الاعتذار والاستغفار عن غير ذنبٍ يصدر كثيراً لغرض التلطُّف والتملُّق لذوي المقامات العالية، فلأنَّ المُتملِّق يحرص على انْ يكون محظيَّاً وله درجةُ القُرْبُ من هذا الوجيه أو الأمير لهذا فهو يتوسَّل بالاعتذار ليظهرَ في مظهر الانكسار والانقياد لذلك الأمير فيرضى عنه

ويُقرِّبه منه، فاعتذار هذا المتملِّق لم يكن لذنبٍ اجترحه في حقِّ أميره وإنَّما كان لغرضِ الحصول على المزيد من الزُلفى والحظوةِ عند أميره، فمثلُ هذا الباعث على الاعتذار وإنْ كان مستهجَناً فيما بين الناس ولكنَّه راجحٌ بين العبد وربِّه.

النتيجة:

وعليه فتوهُّم انَّ المتفاهم العرفي من طلب المغفرة هو انَّه لا يكون إلا عند الارتكاب للذنب يدحضه ما هو المشاهد بالوجدان من اعتذار ذوي الذوق لمَن أحسن إليهم رغم عدم إساءتهم إليه، ويدحضه كذلك ما هو المُلاحَظ بالوجدان من كثرة اعتذار المتملِّقين لذوي المقامات، ويتَّفق كذلك كثيراً اعتذار مثل الأب عن خطأ ابنه والرئيس عن خطأ أحد مرؤسيه ، ويعتذر شيخُ القبيلة عن ذنبٍ اجترحه أحدُ أفراد قبيلته رغم انَّ كلَّ هؤلاء ليسوا مذنبين، وباعثُهم على الاعتذار هو انتساب المذنب إليهم وشعورهم انَّ خطأه قد أدخلَ عليهم وهناً لا يجبره إلا اعتذارهم.

ما هو منشأ استغفار موسى عليه السلام لنفسه و أخيه؟

فلعلَّ استغفار موسى لنفسه ولأخيه هارون كان باعثه شعورهما بالخجل من ربِّهما حيثُ انَّ مَن انتهك حرمة الربِّ جلَّ وعلا كانوا رعيةً لهما وقد كُلِّفا بهدايتهم، وهما في ذات الوقت ينحدران من سُلالتهم، فالصلةُ بينهما وبين المذنبين وثيقة، فلعلَّ ذلك هو منشأ استغفارهما

ليُعبِّرا باستغفراهما عن براءتهما مما اجترحه قومُهما، وليجبرا به شعورهما بالخجل حيثُ لم يُثمر جهدهما الهدايةَ لعموم بني إسرائيل، فكأنَّهما شعرا بأنَّ الذنب الذي ارتكبه بنو إسرائيل وقع نتيجة إخفاقهما في أداء ما تمَّ تكليفهما به.

فإمَّا ان يكون ذلك هو منشأ إستغفارهما أو أنَّ المنشأ هو ما يكون عليه المؤمن من الشعور الدائم بالتقصير في أداء حقِّ ربِّه عليه، فهو يُكثر من الإستغفار لشعوره بأنَّ ما يلزمه فعله تجاه ربِّه أضعاف ما يفعل، فلأنَّه عاجزٌ عن الوفاء بحقِّ ربِّه لذلك فهو يُكفِّر عن عجزه بالاستغفار، وكذلك فإنَّه يُكثر من الاستغفار كما يُكثر من الشكر للتعبير عن الامتنان والإقرار بسُبوغ آلاء ربِّه عليه وانَّه قاصرٌ عن مجازاته على جزيل نعمه، فهو يرى انْ لا شيء أنسب بالمجازاة لآلاء ربِّه سوى الاعتذار عن العجز على المجازاة.

أو يكون المنشأ لاستغفار موسى وهارون عليهما السلام هو الحرص على المزيد من القرب لله جلَّ وعلا، ذلك لإدراكهما انَّ الاستغفار والإقرار باستحقاق التوبيخ هو من أبرز مظاهر الإنقياد والعبودية لله جلَّ وعلا.

فلعلَّ أحد هذه المناشئ هو ما بعث موسى وهارون على الاستغفار أو انَّ الباعث على الاستغفار هو هذه المناشئ مجتمعة.

ما لكم كيف تحكمون؟!

وممَّا ذكرناه يتَّضح انَّ الاستغفار لا يكشف بالضرورة عن صدور الذنب من المُستغفِر، فكثيراً ما ينشأ الاستغفار عن بواعثَ ليس منها صدور الذنب من المستغفِر أو المستغفَر له، وحينئذٍ كيف يسوغ لمنصفٍ الجزم بأنَّ استغفار موسى لأخيه هارون لم يكن إلا عن ذنبٍ ارتكبه؟! والأغرب من ذلك هو الادِّعاء بأنَّ ذلك الذنب هو العبادة للعجل، إذ انَّ استفادة هذه الدعوى من مجرَّد الاستغفار أشبهُ شيءٍ بالاستدلال على هزيمة الجند عند حدود البلد بنعيب الغراب في المدينة!!

منشأ غضب موسى عليه السلام على أخيه:

وأما لماذا غضب موسى عليه السلام من أخيه هارون عليه السلام فالواضح من الآية التي سبقت آية الاستغفار انَّ ذلك لم ينشأ عن دعوى مشاركة هارون لبني إسرائيل في عبادة العجل، وذلك لما بيَّناه من انَّ الآية أفادت أنَّهم استضعفوه واستصغروه وهمُّوا بقتله، وقد وصفهم هارون في الآية بالأعداء وبالظالمين، وكلُّ ذلك يكشف كشفاً قطعياً انَّه مانَعَهم وعارَضَهم لا انَّه -كما زعم المُرجِفون- شارَكهم أو حتى مالئهم.

وعليه فمنشأُ غضب موسى من هارون يتعيَّن في غير دعوى المشاركة أو حتى الممالئة والمداراة، فكلُّ ذلك لم يكن قد وقع من نبيِّ الله هارون عليه السلام، نعم من المحتمل انْ يكون منشأ غضب موسى هو عدم

ارتضائه لموقف هارون الذي وإنْ كان صارماً ولكنَّه لم يكن شديد الصرامة حيثُ انَّه اكتفى بنصحهم ووعظهم وتحذيرهم من مغبَّةِ ما يفعلون ثم عقد العزم على عدم مقارعتهم ريثما يعود موسى عليه السلام من ميقات ربِّه، فلعلَّ إحرازه انَّ هارون لم يُبالغ في الشدَّة معهم هو ما أغضبه من أخيه هارون عليه السلام.

وثمة احتمالٌ آخر لمنشأ الغضب الذي انتاب موسى من أخيه، وهو انَّه تصوَّر أنَّ هارون اكتفى بنصحهم في أول الأمر ثم تركهم وشأنهم منتظراً رجوع أخيه موسى، فذلك التصوُّر هو ما أغضبه من أخيه ثم حينما تبيَّن له موقف هارون مما أحدثه بنو إسرائيل وانَّه بذل كلَّ جهدٍ كان بوسعه بذله في سبيل ردعهم عن غيِّهم، وانَّهم لم يستجيبوا له بل استضعفوه وكادوا يقتلونه، فحين تبيَّن لموسى عليه السلام ما كان قد فعله هارون استجود موقفه فعبَّر عن ارتضائه لموقفه بإشراكه في الدعاء لنفسه وله بالمغفرة والرحمة.

وهذ الاحتمال هو الراجح إنْ لم يكن هو المتعيَّن بقرينة انَّ موسى لم يقل لأخيه بعد أنْ بيَّن له ما كان قد فعل، لم يقل له كان عليك أنْ تكون أشدَّ صرامةً معهم بل عقَّب على كلام أخيه بأنْ تصدَّى للدعاء لنفسه وله بالمغفرة والرحمة، وذلك ما يُعبِّر عن انَّ سكون غضبه إنَّما نشأ عن تبيُّنه لموقفه وارتضائه به.

والذي يُؤيد انَّ موقف هارون عليه السلام كان مرضيّاً هو انَّ القرآن قد امتدح موقفه وأورده في سياق انَّه كان تمام الحجَّة على بني إسرائل، قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[1].

فموقف هارون لم يكن خلاف الأنسب والأولى بل إنَّ ما فعله كان هو ما ينبغي فعله دون سواه، غايته انَّ موسى عليه السلام لم يكن على علمٍ بذلك نظراً لغيبته، فقد تصوَّر انَّ هارون لم يُبالغ في نصحهم كما هو المُنتظَر منه وكما هي وصية موسى له قبل خروجه إلى الميقات، ولذلك ورد في سورة طه انَّ موسى فور رجوعه من غيبته: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[2] فهو قد تصوَّر انَّ هارون قد توانى في إرشادهم فلم يستفرغ وسعه كما أوصاه في الحيلولة دون وقوعهم في هذه الشبهة المضلَّة إلا انَّه حين تبيَّن له ما كان قد فعله في سبيل ردِّهم عن غيِّهم سكن غضبه، وعبَّر عن إرتضائه لموقف أخيه بالدعاء لنفسه وله بالمغفرة والرحمة.

١- سورة طه الآية/٩٠.

٢- سورة طه الآيتان/٩٢-٩٣.

المحور الثاني: الكلام في دعوى السماح:

وأما دعوى ظهور الآية الثانية والتسعين من سورة طه في انَّ هارون عليه السلام قد سمح لبني إسرائيل في عبادة العجل فالآية المُشار إليها هي قوله تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.

من أين جاءت دعوى السماح؟

١- هل في كلام هارون عليه السلام إذنٌ مباشر أو غير مباشر؟!

وجواب هذه الدعوى انَّ السماح المذكور في الشبهة إما انْ يكون بمعنى الإذن صريحاً لهم بعبادة العجل أو يكون بمعنى الإيحاء لهم بالإذن وعدم الممانعة وانَّ عبادتهم للعجل مما لا ضير فيه ولا غضاضة، فهو وإنْ لم يكنِ قد أذن لهم باللفظ لكنَّه فعل ما يُعبِّر بنظر العرف عن الإذن.

وكلا المعنيين تدحضه الآية التي وردت في سياق الآية المذكورة، ولا يفصلها عنها سوى آيةٍ واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[١] فكان جوابهم: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا

١- سورة طه الآية/٩٠.

مُوسَى﴾ فالآية صريحةٌ في انَّ هارون لم يأذن لهم في عبادة العجل ولا أوحى إليهم بما يكشف بنظر العرف عن الإذن وعدم الممانعة من قِبَله لعبادتهم للعجل بل تصدَّى لوعظهم وذكَّرهم انَّ ربَّهم الرحمن دون سواه، وحذَّرهم من الافتتان عن دين الله تعالى، وأكَّد لهم انَّ العبادة للعجل افتتانٌ وانصرافٌ عن التوحيد والعبادة للرحمن كما هو مفاد: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ ثم أخذ يحضُّهم على اتباعه فيما حذَّرهم منه وعلى طاعته فيما يأمر به من عبادة الرحمن وحده.

٢- حتى بني اسرائيل لم يفهموا منه السماح!

هذا وقد فهم بنو إسرائيل مراده وانَّ موقفه الرفض لما يصنعون إلا انَّهم لم يعبَئوا بوعظه وتمنَّعوا من قبول نُصحه، وأجابوا عن تحذيره جواب المكابِر المتمادي في غيِّه: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.

فمِن أين إذن جاءت الدعوى بالإذن لهم او الإيحاء بالإذن في عبادة العجل؟! أليس ذلك من الظلم البيِّن؟ فالآيةُ التي اشتملت على خطاب موسى لهارون واقعةٌ في سياق هذه الآية التي هي صريحة في تصدِّي هارون لممانعة بني إسرائيل من عبادة العجل، وجوابُهم صريحٌ في فهْمِهم لموقفه وصريحٌ في رفضهم لقبوله والإذعان إليه.

٣- وهل في كلام موسى عليه السلام ما يدلُّ على السماح؟!

وأما خطاب موسى عليه السلام لأخيه هارون بعد رجوعه من ميقات ربِّه فليس له ظهورٌ بل ولا إشعارٌ في انَّ هارون قد أذن لبني إسرائيل أو انّه أوحى لهم بالإذن في عبادة العجل فقوله: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ ظاهرٌ جداً في أنَّ موسى عليه السلام لم يكن يعلم بما فعله هارون في غيبته، فهو حين رجع فوجد بني إسرائيل قد ضلُّوا وعبدوا العجل تصوَّر انَّ هارون لم يتصد لهدايتهم بالمقدار الكافي فلم يبذل قصارى جهده في هذا الشأن على أمل انّ يرجع موسى فيُصلحهم، هذا التصوُّر الذي وقع في خلَد موسى هو ما بعثه على الغضب من هارون ودفعه إلى توبيخه بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فمفاد استنكاره -كما هو ظاهرٌ جداً من الآية- هو انَّه لماذا لم تتصدَّ لهدايتهم حين وجدتهم ضلَّوا، ألم أُوصك حين خروجي بملاحظة أحوالهم وإصلاح ما يطرأ من فسادٍ فيهم والمحاذرة من وقوعهم في ضلالة، فلماذا لم تتبعني أفعصيتَ أمري؟ هذا هو مفاد خطاب موسى الاستنكاري لهارون، فهو لم يتَّهمه بالإذن لهم في عبادة العجل لا صريحاً ولا إيحاءً، فليس في خطابه ما يُعبِّر عن اتهامه له بذلك بل وليس فيه ما يُشعر بخطور هذه التهمة في ذهن موسى عليه السلام.

فغاية ما وقع في ذهن موسى عليه السلام انَّ هارون عليه السلام قصَّر في النهوض بمسئوليته التي أُنيطت به، وهي بذل أقصى الجهد في هداية بني إسرائيل، فهو قد تصوَّر انَّ هارون لم يستفرغ وسعه في هدايتهم وردعهم عما أحدثوه من عبادة العجل، وذلك التصوُّر هو ما بعثه على الغضب من هارون وإلا فهو على يقينٍ بأنَّ هارون لم يأذن لهم صريحاً ولا إيحاءً كما يدلُّ على ذلك قوله في خطابه لهارون: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فهو قد أسند الضلال لبني إسرائيل ولم يُشرك أخاه معهم في النعت بالضلال، فلو كان موسى عليه السلام يتَّهم أخاه بالإذن لهم تصريحاً أو إيحاءً لكان هارون بنظره ضالاً مثلهم؛ إذ انَّ الإذن بعبادة غير الله تعالى هو من أعظم الضلال بل هو من مثل هارون يكون في أسفل درجات الضلال، فلو كان هارون قد أذن لهم ولو بالإيحاء في عبادة العجل لكان أشدَّ ضلالاً منهم أو لا أقل يكون أشدَّ ضلالاً من عامَّتهم اللذين لا يعلمون ما يعلم ولا يكون لضلالهم أثرٌ على غيرهم، فاتِّهامه بالإذن يُساوق اتِّهامه بتضليلهم أو تضليل السوَقة منهم وهم الأكثر.

فلو كان موسى عليه السلام يتَّهم أخاه بالإذن في عبادة العجل ولو بالإيحاء لما خاطبه بقوله: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فهو قد صرف الوصف بالضلال عن أخيه هارون وأسنده لبني

إسرائيل وخاطبه بصفته المؤهَّل والموكَّل بالهدايه، وذلك ما يكشف بمستوى القطع عن انَّه لم يتَّهمه بالإذن وإلا كان بنظره ضالاً مثلهم بل كان أولى بوصف الضلال منهم.

فحيث انَّ موسى لم يكن متَّهماً لأخيه بالإذن كما اتَّضح فالمتعيَّن من مفاد خطابه ان توبيخه لأخيه كان قد نشأ عن تصوره بأنَّ هارون لم يكن قد نهض بمسئوليته على أكمل وجه، وهذا التصوُّر غير الواقعي نشأ عن غيبته وعدم علمه بموقف هارون، وأما مبادرته إلى توبيخه قبل التثبُّت فنشأ عن انَّ الغضب الذي انتاب موسى عليه السلام كان قد أخذ منه مأخذاً عظيماً لهول ما آل إليه أمرُ بني إسرائيل بعد طول عناءٍ ومكابدة، فلم يكن ينتظرُ منهم هذا الانحراف الخطير، وكان في ذات الوقت يتوقَّع انَّ لهارون القدرة على انْ يعصمهم عن هذا المستوى من الانحراف، فهو قد خلَّفه في قومه واثقاً بأنَّ وجوده بينهم سيحول دون وقوعهم في ضلال، فإذا بقومه قد بلغ بهم الضلال مداه، فقد عبدوا عجلاً له خُوار، فكان وقْعُ ذلك على قلبه شديداً، فبمقتضى طبع كلٍّ زعيم إذا وجد إخفاقاً أو خطأً فظيعاً ممَّن يترأسهم فإنَّه يتَّجه باللوم أولاً إلى مَن أوكل إليه مسئولية النظر في شئونهم، فغضْبةُ موسى من أخيه كانت انسياقاً مع مقتضى الطبع الإنساني، وذلك لا ينافي العصمة -التي لا ريب في انَّ موسى واجدٌ لها-

إذْ انَّ ما صدر من نبيٍّ الله موسى عليه السلام كان خلاف الأولى، ومخالفةُ الأولى قد يتّفق صدوره من المعصوم.

الخلاصة:

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ توبيخ موسى لأخيه هارون فور عودته من الميقات كان قد نشأ عن تصوره بأنَّ هارون لم يبذل أقصى الجهد في سبيل هداية بني إسرائيل، وفي ذلك مخالفة لما هو مُنتظَرٌ منه ومخالفةٌ لمقتضى وصيته له حين خلَّفه في قومه، فهذا التصوُّر الذي وقع في خلد موسى هو ما بعثه على الغضب وكانت نتيجته المخاطبة لهارون بلسان التوبيخ والاستنكار.

ولو لم يُقبل ان منشأ الغضب هو عدم العلم بحقيقة موقف هارون فإنَّ المتعين عندئذ هو البناء على انَّ موسى قد غضب من أخيه رغم علمه بأنه قد جدَّ في هدايتهم، وعليه فمنشأ غضبه هو عدم ارتضائه بطبيعة موقف هارون، لأنه كان يرى لزوم المقارعة أو المباينة لهم، وحيث انَّ هارون لم يفعل ذلك في غيبته لذلك غضب منه حين رجوعه.

وأما احتمال انَّ منشأ غضبه هو انَّ هارون أذن لبني إسرائيل بعبادة العجل تصريحاً أو إيحاءً فذلك ما لا يمكن استظهاره من الآية المباركة وإلا كان مقتضاه انَّ موسى يعتبر أخاه من الضالين، إذ انَّ الإذن في عبادة غير الله تعالى هو من أعظم الضلال، والآية التي اشتملت على خطاب

موسى لهارون صريحة في انَّه لم يكن يرى أخاه ضالاً، نعم هو يراه بحسب مدلول الآية غير متَّبع لوصيته لا انَّه يراه ضالاً مثلهم: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فاللذين أسند إليهم الضلال هم بنو إسرائيل، وأما هارون فخاطبه بما يكشف عن انَّه يراه محلاً للتصدِّي للهداية، فهو يستنكر عليه لماذا لم يهدهم، ولا يُخاطب أحدٌ أحداً بذلك إلا إذا كان يراه جديراً بهذا المقام.

على انَّ الآية المشتملة على خطاب موسى لهارون عليهما السلام كانت بصدد الحكاية لما خاطب به موسى أخاه هارون، فهي تحكي عتاباً من غائبٍ غاضب قابله هارونُ بجواب، فهي لم تكن بصدد البيان لما فعله هارون واقعاً، وإنَّ الآية التي تصدَّت لبيان ما فعله هارون واقعاً في غيبة موسى عليه السلام هي الآية التي سبقت هذه الآيةَ بآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

فهذه الآية هي التي تصدَّت للإخبار عمَّا صدر عن هارون واقعاً في غيبة موسى عليه السلام وقد أفادت صريحاً انَّ هارون قد أَعذَرَ في النُصح لبني إسرائيل وألزمهم الحجَّة، فلا عُذر لهم بعد قوله عليه السلام.

والحمدلله رب العالمين

الشبهة السابعة والعشرون

﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾

الشبهة السابعة والعشرون

﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾

ورد في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إلى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[1] فالواضح من هذا الكلام أنَّ فرعون لم يأمر بقتل أبناء اليهود إلا بعد ما جاءه موسى بالحق...!! ولكنَّ القرآن يقول في سورة طه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾[2] ومعنى هذا أنَّ فرعون أمر بقتل أبناء اليهود وموسى لمَّا يزل طفلاً ولم يأتِ الوحي بعد، بينما في النص السابق أمر بقتلهم حين جاءه موسى وهو شابٌّ قوي البنيان مكتمل الرجولة وداعياً لربِّه بلسانٍ فصيح، لا لسان طفل...!

طيب أيُّ النصّين أُصدِّق أم إنَّ هناك أكثر من موسى واحد وأكثر من مجزرةٍ واحدة بحقِّ اليهود...؟؟

١- سورة غافر الآيات/٢٣-٢٥.

٢- سورة طه الآيتان/٣٨-٣٩.

الجواب

ما المانع من حدوث مجزرتين؟!

ليس في الآيات من سورة غافر ما يدلُّ ولو بنحو الإشعار انَّ فرعون لم يكن قد أصدر أمراً حين كان موسى عليه السلام صبيًّا أو قبل ولادته بقتل الإسرائيليين المنحدرين من سلالة يعقوب عليه السلام واللذين كانوا يقطنون أو أكثرهم أرضَ مصر، فمن أين جاءت دعوى الوضوح في ذلك؟! فإنَّ أقصى ما هو ظاهر الآيات من سورة غافر هو انَّ فرعون بعد انْ بُعث موسى عليه السلام وآمن معه جمعٌ من قومه أمر فرعون بقتل أبناء اللذين آمنوا بموسى عليه السلام، فهي متصدِّية للإخبار عن أنَّ أمراً قد صدر عن فرعون بقتل أبناء المؤمنين بموسى عليه السلام وذلك لا يمنع من انَّه كان قد أصدر أمراً -قبل ذلك حين كان موسى صبيًّا- بقتل أبناء الإسرائيليين.

وعليه فلا تكون الآيات من سورة غافر منافية لما ورد في سورة طه، وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ

فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[١].

فإنَّ غاية ما يقتضيه الجمع بين الآيات من سورتي طه وغافر هو انَّ ثمة قرارين قد صدرا عن فرعون بقتل أبناء الإسرائيليين كان أحدهما قبل ولادة موسى عليه السلام وهو الذي كان منشأً لخشية أُم موسى عليه السلام عليه من القتل بعد وضعه، والقرارُ الآخر صدر عن فرعون بعد مبعث موسى عليه السلام وإيمان جمعٍ من قومه بدعوته كما هو مفاد الآيات من سورة غافر.

فما هو المحذور من الالتزام بأنَّ ثمة قرارين قد صدرا عن فرعون أحدهما قبل ولادة موسى عليه السلام والآخر بعد مبعث موسى عليه السلام؟! وأيُّ محذورٍ في انَّ يكون فرعون قد أوقعَ مجزرتين بالإسرائيليين؟ وهل يملك صاحب الشبهة ما يتمكّن به من نفي وقوع ذلك؟

وما دخْلُ القرآن بتأريخكم؟!

ولو كان في تاريخه ما ينفي وقوع مجزرتين لبني إسرائيل على يد فرعون فإنَّ أقصى ما يلزم عن ذلك هو انَّ ما في تاريخه منافٍ لما أفاده القرآن، وأيُّ غضاضةٍ في انْ يتنافى القران مع ما كتبوه في تاريخهم؟

١- سورة طه الآيتان/٣٨-٣٩.

فالكثير مما يُؤمن به اليهود والنصارى قد نفاه القرآن، وليس ذلك عندنا بضائر، إذ انَّ مدار التصديق بمفادات القرآن عندنا ليس هو تطابق ما جاء به مع ما يُؤمن به اليهود والنصارى بل انَّ ما جاء به القرآن هو الحقُّ الذي لا ريب فيه وإنْ خالفه اليهود والنصارى مجتمعين.

ولذلك لو كان مقتضى الجمع بين الآيات من سورتي طه وغافر هو وقوع مجزرتين لبني إسرائيل على يد فرعون فإنَّنا نلتزم بذلك حتى لو فُرض انَّ اليهود والنصارى ينفون وقوع ذلك اعتماداً على تاريخهم، على انَّهم لا يملكون نفي ذلك بنحو الجزم.

هل نُفِّذ القرار الثاني؟

ثم إنَّ الآيات من سورة غافر لا تدلُّ على انَّ فرعون قد أُنجز له ما كان قد قرَّره من قتل أبناء اللذين أمنوا بموسى عليه السلام، فإنَّ مفاد الآيات هو انَّ قراراً بقتل أبناء اللذين آمنوا بموسى عليه السلام قد صدر عن فرعون إلا انَّ فرعون وجنوده هل تمكنوا من إنفاذه أو انَّ هلاك فرعون وملئه بالغرق حال دون إنجاز هذا القرار؟ إنَّ هذا المقدار لم تتصدَّ الآيات من سورة غافر لإثباته أو نفيه.

خلاصة:

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ مفاد الآيات من سورة غافر هو انَّ فرعون لمَّا بُعث موسى عليه السلام وصار له أتباع يُؤمنون بدعوته أصدر أمره بقتل أبناء

اللذين آمنوا بموسى نكايةً بهم، وليس في الآيات دلالة ولو بنحو الإشعار على انَّ فرعون لم يصدر عنه أمرٌ بقتل أبناء الإسرائيليين في الفترة التي وُلد فيها موسى عليه السلام ولذلك فإنَّ مقتضى الجمع بين ماورد في سورة غافر وما ورد في سورة طه أنَّ ثمة أمرين كانا قد صدرا عن فرعون أحدهما صدر في الفترة التي وُلد فيها موسى عليه السلام، وهذا هو ما أفادته الآيات من سورة طه، والأمر الآخر صدر بعد مبعث موسى عليه السلام وهذا هو ما أخبرت عنه الآيات من سورة غافر.

مطالعة تاريخيَّة و قرآنيَّة لمجريات الموضوع:

هذا وقد ذكر المؤرخون والمفسِّرون انَّ منشأ الأمر الأول الذي صدر في الظرف الذي وُلد فيه موسى عليه السلام هو انَّ المنجِّمين تنبؤوا بأنَّ مولوداً من بني إسرائيل سوف يكونُ هلاكُ فرعون وزوالُ مملكته على يديه، لذلك اقتضى الرأي عند فرعون أنْ يُصدر أمراً بقتل كلِّ ذكرٍ يُولد من بني إسرائيل واستبقاء الإناث منهم للخدمة، وهذا ما كان قد وقع، فكلَّما وُلد ذكرٌ في بني إسرائيل كان مصيره القتل، ولم يُستثنَ من ذلك أحدٌ منهم، وظلَّ هذا القرارُ سارياً إلى أنْ تنبأ المنجِّمون بوقوع القتل على ذلك الولد الموعود في ضمن من قُتل من أبناء الإسرائيليين، فحينذاك رُفع القتل عن ذكور بني إسرائيل بعد أن اطمأن فرعونُ انَّ عدوَّه الموعود الذى

تنبأ المنجِّمون بولادته أو قُرْب ولادته قد هلك، وانَّ الخطر الذي كان يخشاه قد ارتفع سببُه.

ثم إنَّ فرعون وبعد أنْ بُعث موسى عليه السلام وآمن به جمعٌ من قومه أصدر أمراً آخر ولكنَّه كان خاصّاً بأبناء اللذين آمنوا بدعوة موسى عليه السلام فلم يكن القرار الثاني بالقتل شاملاً لعموم الذكور أو مَن يُولد من ذكور بني إسرائيل كما هو القرار الأول.

وبقطع النظر عن صحة ما ذكره المؤرخون من منشأ الأمر الأول بقتل مَن يُولد من ذكور بني إسرائيل فإنَّ الذي لا ريب فيه انَّ الأمر الأول كان قد أُنجز، وقد وقع القتل الذريع في ذكور بني إسرائيل كما يُستفاد ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ

فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۞ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١].

فإنَّ سياق هذه الآيات ظاهرٌ في انَّ القتل كان قد وقع على بني إسرائيل في الفترة التي وُلد فيها موسى عليه السلام وكانت نجاته من القتل قدِّرت بعناية إلهيَّةٍ خاصة.

وأما الأمر الثاني الذي صدر عن فرعون بعد مبعث موسى عليه السلام فالآيات من سورة غافر لا تُثبت ولا تنفي أنُّه كان قد أُنجز، نعم يُستشعر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۞ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٢] فإنَّ هذه الآيات مُشعِرةٌ بوقوع القتل في أبناء مَن آمن بموسى عليه السلام ولكنَّها ليست صريحةً في ذلك لاحتمال انَّ فرعون وإنْ كان قد توعَّدهم بالقتل إلا انَّه لم يتهيأ له ذلك.

١- سورة القصص الآيات/٤-٩.

٢- سورة الأعراف الآيات/١٢٧-١٢٩.

وعلى كلٍّ تقدير فلا محذور بل ولا استبعاد في انَّ القتل لذكور بني إسرائيل قد وقع لهم في الحقبتين كما مُستشعَرٌ من قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثامنة والعشرون

كيف انتبذت لوحدها مكاناً قصيًّا؟

الشبهة الثامنة والعشرون

كيف انتبذت لوحدها مكاناً قصيًّا؟

ثمة تناقضٌ في القرآن فيما يتّصل بالسيدة مريم، ففي سورة آل عمران نجد إنّ مريم العذراء كفلها زكريا واتّخذ لسكناها محراباً، أما في سورة مريم فنجد أنّ مريم انتبذت لوحدها مكاناً قصيًّا ...!

الجواب

تحريرُ وجهِ الشبهة:

الوجه في دعوى التناقض هو انَّ المستظهَر من الآيات الواردة في سورة آل عمران انَّ أُمَّ السيدة مريمعليها السلام قد نذرت انْ تجعل ما في بطنها من حمل محرَّراً لله تعالى، وكان مقتضى ذلك عندهم هو انَّ يُصبح هذا الذي نُذر انْ يكون محرَّراً خادماً في بيت المقدس، ويُتَّخذ له موضعٌ فيه للعبادة كلَّما فرغ من خدمة الوافدين والعبَّاد، وحين وضعتْ زوجةُ عمران ما في بطنها وجدتْها أُنثى، ولا تصلح الأُنثى للخدمة في بيت المقدس خصوصاً بعد بلوغها، ولكنَّها رغم ذلك وحتى تفي بنذرها عقدت العزم على انْ تجعل من بنتها منقطعةً للعبادة في بيت المقدس، ولا ضير بأنْ تخدم فيه بما لا ينافي أُنوثتها، وحيثُ انَّ مريمعليها السلام قد وُلدت يتيمة لذلك تولَّى شأنَ رعايتها زوجُ خالتها نبيُّ الله زكرياعليه السلام ثم اتَّخذ لها موضعاً للعبادة بعد انْ نشأت، فكانت في عُهدته حتى بعد نشوئها وانقطاعها للعبادة، فكان يتعاهدها في محرابها ينظر في حوائجها

ليقضيها لها، فكان كلّما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فظاهر هذه الآيات انّ السيدة مريم عليها السلام كانت منقطعةً للعبادة في محرابها، وكان زكريا عليه السلام هو المتكفِّل برعاية شئونها والنظر في حوائجها، ومقتضى انقطاعها للعبادة وكفالة زكريا لها هو انّ لا تخرج بعيداً عن ذلك الموضع، وحين تخرج لبعض حاجاتها الخاصّة فإنّ ذلك يكون برعاية كفيلها زكريا عليه السلام.

هذا ما تقتضيه الآيات من سورة آل عمران إلا انَّه نجد في سورة مريم ما يُخالف هذا الذي ورد في سورة آل عمران، فقد ورد في سورة مريم أنَّها خرجت وحدها ودون علم كفيلها بعيداً عن موضع عبادتها،

١- سورة آل عمران الآيات/٣٥-٣٧.

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[1] فالمكان القصيُّ هو الموضع البعيد عن موضع سكناها وعبادتها.

جوابُ الشبهة:

والجواب هو انَّه ليس بين الآيات من سورة آل عمران وبين ما ورد في سورة مريم تنافٍ أصلاً، وذلك لأنَّ ما ورد في سورة مريم من خروجها دون علم زكريا بعيداً عن موضع سكناها وعبادتها كان لوضعٍ استثنائي قد طرأ للسيدة مريم على غير اختيارٍ منها، وهو انَّها حبلت بالسيد المسيح عليه السلام لذلك وجدت نفسها في حرجٍ شديد اضطرها للخروج وحدها بعيداً عن موضع سكناها وعبادتها خشيةَ اتّهامها، ولأنَّه لن يتفهَّم أحدٌ انَّها تحبل وهي عذراء غير متزوِّجة، والآيات من سورة مريم صريحةٌ في ذلك، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ

١- سورة مريم الآية/٢٢.

وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[1].

فهي بمقتضى صريح هذه الآيات من سورة مريم كانت في مكانها الشرقي موضعِ حجابها منقطعةً فيه للعبادة حتى عن أهلها فأرسل اللهُ تعالى إليها رسولاً من ملائكته فأنبأها انَّ الله تعالى قد قضى بأنْ يهبها دون زواجٍ ولدًا تحمله في بطنها ثم تضعه فيكون آيةً للناس، فكان ذلك أمراً مقضيًا مُبرَماً من الله تعالى، فحين حبلتْ به خرجتْ وهي تحمله في بطنها لتتوارى بحملها عن أعين الناس فما استقرَّت حتى بلغت به مكاناً قصيًّا بعيداً مُقفِراً ليس فيه مسكنٌ لبشر، وهناك ألجأها المخاضُ إلى جذعِ نخلةٍ استندت إليه فوضعتْ جنينها.

أين هو التناقض؟!

فأين هو التنافي بين هذه الآيات وبين ما ورد في سورة آل عمران؟! هل اشتملت سورةُ آل عمران على ما يدلُّ على انَّ مريم لم تخرج من موضع سكناها أبداً؟! أو ذكرت انَّه لا يصحُّ لها الخروج وحدها ولو لظروفٍ استثنائية؟! وهل ورد فيها انَّ زكريا لم يغفل عنها، ولم يتركها

١- سورة مريم الآيات/١٦-٢٢.

تخرج وحدها أبداً، وانَّه كان يسكن قريباً من محرابها بحيث لا يسعها الخروج من غير علمه مطلقاً؟!

كلٌ ذلك لم يُذكر في سورة آل عمران، وغايةُ ما أفادته سورة آل عمران انَّ للسيدة مريمعليها السلام محراباً هو موضع سكناها وهو موضع عبادتها، وانَّ زكرياعليه السلام كان قد تكفَّل برعاية شئونها وانَّه كان يتعاهدها بين الفينةِ و الأخرى للنظر في حاجاتها، وذلك لا يقتضي أنْ لا تخرج بعيداً أبداً من ذلك الموضع ولو لظروفٍ استثنائية، وتولِّي زكريا لشئوناتها لا يمنع من غفلته عنها وتمكُّنها من الخروج من محرابها دون علمه، فقد كان لزكريا زوجة ومنزلٌ يأوي إليه، وكان له عمله الخاصُ به وعباداته التي يخلو بها مع ربِّه.

وهل خرجت إلّا بعناية الربّ تبارك و تعالى؟!

فما أفادته سورةُ مريم من خروجها بعيداً بعد انْ حبَلت بعيسىعليه السلام لا يُنافي كونها محرَّرةً لله تعالى وانَّ لازم ذلك انْ لا تكون منقطعةً له جلَّ وعلا، فهي لم تخرج للنزهة والترويح عن نفسها، ولا خرجت مُعرِضةً عن عبادة ربِّها، وكذلك فإنَّ كونها مكفولةً لزكريا لا يُصيِّرُ من خروجها وحدها -ودون علم كفيلها- محرَّماً خصوصاً وانَّ خروجها مضافاً إلى انَّه كان لظرفٍ استثنائي كان محلًّا لعناية الله جل وعلا ورضوانه كما هو مقتضى العنايات التي أُفيضت عليها وهي في ذلك المكان القصي، فهي

حين ألجأها المخاضُ إلى جذع النخلة التي لم تكن مثمرة خاطبها الوحيُ أو وليدُها بأنْ تهزَّ الجذع، فما راعها إلا وقد أثمر رطباً جنيّاً تساقط عليها وصار في متناولها، ثم وجدت نبعاً من ماء يسري لم يكن حين ألجأها المخاضُ إلى ذلك الموضع، ثم خُوطبت بقوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾[1] فكان ذلك مبعثاً لاطمئنانها وانشراح صدرها وسُكون ما اعتلج في قلبها من هواجس، ثم لقَّنها الوحيُ ما تحتجُّ به على قومها حين تعود إليهم وهي تحمل رضيعها بين يديها، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾[2] فحين بلغت به مقرَّها وشاهدها قومُها تكفَّل رضيعُها بإثبات براءتها، قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[3].

١- سورة مريم الآية/٢٦.

٢- سورة مريم الآية/٢٦.

٣- سورة مريم الآيات/٢٧-٣١.

كلٌ ذلك يُؤكد انَّ خروجها كان تحت عناية الربِّ جل وعلا وبأمرٍ منه، فهي كانت منقطعةً إليه، وهو مَن أراد لها الخروج إلى حيثُ وضعت جنينها، فخروجُها واقعٌ في صراط طاعته والإذعان لإرادته جلَّ وعلا.

فأين هي المنافاةُ بين كونها محرَّرةً لله تعالى وبين خروجها من محرابها لوضع جنينها الذي تخلَّق بكلمةٍ من الله ووضعته تحت عناية الله تعالى.

فلعمري إنَّ ذلك أوضحُ من انْ يحتاج إلى بيان لو لا انَّ هذا المُثير للشبهة قد ادَّعى المنافاة تعنُّتاً ودون أدنى تثبُّت أملاً في التشويش على سوَقة الناس أو اللذين لا اطِّلاع لهم على آيات القرآن.

منبّهٌ أخير:

على انَّ الآيات من سورة آل عمران اشتملت على ما يُعبِّر عن انَّه لم يكن في ذهن زوجة عمران انَّ مريم ابنتها ليس لها أنْ تخرج من محرابها أبدًا، فقد أعاذتها وذريَّتها من الشيطان الرجيم، وهذا يقتضي أنَّ والدة مريم كانت ترجو لابنتها أنْ تتزوَّج ويكون لها من زواجها ذريَّة، والزواج والذريَّة يقتضيان مكثها طويلاً خارج محرابها، فوالدةُ مريم لم تكن ترى تنافياً بين نذر ابنتها لتكون محرَّرةً لله تعالى وبين أنْ تخرج من محرابها، فكونُها محررةً لا يعني بمقتضى ذلك أنْ تبقى أبداً معتزلةً -في محرابها- كلَّ شئونات الحياة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي

وَضَعَتْهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[١].

والحمد لله رب العالمين

١- سورة آل عمران الآية/٣٦.

الشبهة التاسعة والعشرون

الجمع بين أرسلنا روحنا ونفخنا من روحنا

الشبهة التاسعة والعشرون

الجمع بين أرسلنا روحنا ونفخنا من روحنا

يقول القرآن في سورة مريم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾[1] لكنَّه يقول في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2]. فالآيةُ الأولى ذكرت: انَّ الله أرسل روحه: ﴿رُوحَنَا﴾ ولكنَّ الآية الأخرى قالت: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾.. فالجزء ليس الكل.. والكل ليس الجزء أليس كذلك؟!

١- سورة مريم الآية/١٧.

٢- سورة الأنبياء الآية/٩١.

الجواب

منشأ الشبهة

ليس بين الآيتين تنافٍ، ولم تنشأ هذه الشبهة إلا عن قصورٍ في فهم الآية الثانية وتوهُّم انَّ المراد من قوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ هو ذاتُه المراد من قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ رغم انَّ الواضح هو انَّ المقصود من الروح في الآية الثانية مختلفٌ عمَّا هو المقصود منه في الآية الأولى.

المراد من الآية ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾

فالمراد من الروح المضافة لله تعالى في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ هو الملَك الذي أرسله إلى مريم عليها السلام فمعنى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ هو انَّ الله جلَّ وعلا بعث إليها جبرئيل عليه السلام فتمثَّل لها في صورة بشر كما هو المُفاد من تمام الآية المباركة: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾.

فهذه الآية والآيات الواقعة في سياقها كلُّها تُؤكِّد انَّ المراد من الروح المرسَلة لمريمعليها السلام هو الملك الذي بُعث إلى مريمعليها السلام من أجل إنجاز الأمر الإلهي بإنشاء وخلق السيد المسيحعليه السلام قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[1].

فالآيات صريحة جداً في انَّ ثمة رسولاً من الملائكة هبط على مريمعليها السلام فتمثَّل لها في صورة بشر، ووقعت بينه وبين مريمعليها السلام مخاطبة ومحادثة بيَّن فيه الملَك المرسَل غايته من الهبوط عليها ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ فاستعاذت مريمعليها السلام بالرحمن منه، وحين علمت بغايته عبَّرت له عن هواجسها واستيحاشها وما تخشاه من هذه الغاية: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فأجابها رفعاً لاستيحاشها وبياناً لكون ذلك أمراً إلهيًّا ناجزاً: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا

١- سورة مريم الآيات/١٧-٢٢.

مَقْضِيًّا﴾، فالمحادثة وقعت بين ذاتين عاقلتين هي ذات الملَك المرسَل، والذات الثانية هي ذاتُ السيدة مريمعليها السلام.

المراد من الآية ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾

فالمراد إذن من الروح في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ هو الملَك المرسَل للسيدة مريمعليها السلام وهو جبرئيلعليه السلام ومعنى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا﴾ هو انَّ الله تعالى بعث إلى مريم رسوله جبرئيلعليه السلام وأما المراد من قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ فهو بيان لخلق عيسىعليه السلام في رحم مريم، ومعنى الروح المضافة تشريفاً لله تعالى في هذه الفقرة هي الروح الباعثة للحياة كما هو معناها في قوله تعالى يحكي كيفية خلق آدمعليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وكذلك قال تعالى في سورة أخرى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(١) فالروح التي نُفخت في الطين بعد تسويته هي الروح التي بعثت الحياة لآدمعليه السلام وأضافها الله تعالى لنفسه إضافةَ ملكٍ تشريفاً لها، وكذلك هو معنى الروح التي في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ

١- سورة ص الآيتان/٧١-٧٢.

رُوحِنَا﴾[١] فإنَّ معنى الروح في هاتين الآيتين هي التي نُفخت في مريم فخُلقَ منها عيسى عليه السلام وصار بها كائناً حيًّا.

أين التنافي؟!

فأين هو التنافي بين قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وبين قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ والحال انَّ الروح في الآية الأولى هو الملَك المرسَل إلى مريم لتبليغها ما أراده الله جل وعلا ولإنجاز هذه الإرادة الإلهية فيها، وأما المراد من الروح في الآية الثانية فهي ذلك الشيء المخلوق لله والذي تنبعث عنه الحياة، فالروح في الآية الأولى ذاتٌ عاقلة مستقلّة وفاعلة وهي ذات الملَك المرسَل، وأما الروح في الآية الثانية فهي تلك التي قال عنها الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢].

مناقشة تنزُليّة

ولو سلَّمنا انَّ المراد من الروح في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ هو الملَك جبرئيل عليه السلام فحرف "من" في الآية ليست تبعيضيَّة كما توهَّم صاحب الشبهة فرتَّب على ذلك التوهُّم انَّ معنى الآية فنفحنا

١- سورة التحريم الآية/١٢.

٢- سورة الإسراء الآية/٨٥.

فيها جزءً من الروح جبرئيل والحال انَّ مفاد حرف الجر "من" في الآية هو ما يُعبِّر عنه النحاة بابتداء الغاية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[١] أي هو كتابٌ جهةُ ومبدأُ صدوره سليمان عليه السلام، وكذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾[٢] أي إنَّ مبدأ ظهور الشمس جهةَ المشرق فاجعل مبدأَ ظهورها جهةَ المغرب، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[٣] أي انَّ مبدأ نزوله جهة السماء وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾[٤] أي تصدر من جهة الله جلَّ وعلا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[٥] أي وصية صادرة من جهة الله جلَّ وعلا، والأمثلة في ذلك كثيرة، وعليه فمعنى قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ لوكان المراد من الروح هو الملَك جبرئيل هو: اننا أحدثنا النفخ من قِبَل أو جهة روحنا أي ملاكنا جبرئيل، فجبرئيل هو جهة صدور النفخ في رحم مريم

١- سورة النمل الآية/٣٠.

٢- سورة البقرة الآية/٢٥٨.

٣- سورة الأنعام الآية/٩٩.

٤- سورة آل عمران الآية/١٥٧.

٥- سورة النساء الآية/١٢.

والذي ترتَّب عليه خلق عيسى عليه السلام فحرف الجر "من" في الآية ليست تبعيضيَّة كما هو واضحٌ لكلٍّ من له أدنى فهم باللغة وسياقات الكلام وإنَّما هي ابتدائية، ومن ذلك يتَّضح انَّ المراد من مجموع الآيتين من سورة مريم وسورة الأنبياء هو انَّ الله تعالى أرسل الروح جبرئيل إلى مريم عليها السلام ثم إنَّ الروح جبرئيل بعد حوار كان بينه وبين مريم عليها السلام نفخ بإذن الله في رحم مريم عليها السلام فتخلَّق من ذلك عيسى عليه السلام بإذن الله تعالى، فأين هو الجزء والكل الذي توهَّمه صاحب الشبهة؟!!

هذا مضافاً إلى انَّه مع التسليم جدلاً انَّ المراد من الروح في الآيتين معنىً واحد وانَّ حرف الجر "من" في الآية من سورة الأنبياء تبعيضيَّة فإنَّه لا تنافي بين الآيتين أيضاً، وذلك لاختلاف الفعلين الصادرين عن المتكلم، ففي الآية من سورة مريم كان الفعل "أرسلنا" وفي الآية من سورة الأنبياء كان الفعل "نفخنا" وعليه فأيُّ محذور في أنْ يكون الإرسال لتمام الروح فتكون الروح بكلِّها قد هبطت وتمثَّلت لمريم عليها السلام ويكون النفخ في رحم مريم لبعض الروح، نعم لو قال الله تعالى في سورة مريم عليها السلام: نفخنا روحنا ثم قال في سورة الأنبياء: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ لأمكن توهُّم التنافي إلا انَّ الأمر لم يكن كذلك، إذ انَّ الآية من سورة مريم قالت: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ فهنا فعلان قد صدرا عن الله تعالى أحدهما الإرسال وهو لتمام الروح، والفعل الآخر النفخ وهو

لبعض الروح، هذا بناء على القبول بأنَّ حرف الجر "من" تبعيضية وانَّ معنى الروح في الآيتين واحد رغم انَّ الأمر ليس كذلك قطعاً.

الخلاصة

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ الشبهة المذكورة في غاية الوهن، فهي مبتنية على توهُّم انَّ معنى الروح في الآيتين واحد وانَّ حرف الجر "من" في سورة الأنبياء تبعيضيَّة، وقد اتَّضح فساد كلا التوهُّمين، وانَّ المراد من الروح في الآية من سورة مريم هو الملَك جبرئيل، وأما المراد من الروح في الآية من سورة الأنبياء فهي الباعثة للحياة، وانَّه لو سلَّمنا بأنَّ الروح في الآية الثانية هي الأمين جبرئيل أيضاً فإنَّ حرف الجر "من" ليست تبعيضيَّة وإنَّما هي ابتدائية، ثم انَّه على فرض القبول بأنَّ حرف الجر "من" تبعيضيَّة وانَّ معنى الروح في الآيتين واحد فإنَّه لا تنافي أيضاً بين الآيتين، وذلك لاختلاف الفعلين ففي الآية الأولى كان الحديث عن الإرسال وفي الآية الثانية كان الحديث عن النفخ.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثلاثون

ما قتلوه وما صلبوه ولكنّه يموت

الشبهة الثلاثون

ما قتلوه وما صلبوه ولكنَّه يموت

في سورة مريم: يقول الربّ بلسان السيد المسيح: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1] بمعنى أنَّ المسيح مرّ بكلٍّ المراحل التي نمرُّ بها نحن البشر حسب كل العقائد الدينية بما فيها أديان الشرق القديم التي سبقت اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام، وهنا لا غبار على هذا القول، ولكن فجأةً يقول القرآن في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[2] إلى قوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾[3] أي إنَّه رُفع حيًّاً ولم يُقتل أو يموت!!

١- سورة مريم الآية/٣٣.

٢- سورة النساء الآية/١٥٧.

٣- سورة النساء الآية/١٥٨.

الجواب

نعم ، السيد المسيح سوف يموت:

لا ريب في دلالة الآية من سورة مريمعليها السلام على انَّ السيد المسيح يموت يوماً ما، وأما انَّه قد وقع عليه الموت فعلاً فهو مما لم تتصدَّ الآية لإثباته أو نفيه، فدعوى انَّ الآية مقتضية للدلالة على انَّ السيد المسيح قد مرَّ فعلاً بجميع المراحل التي يمرُّ بها عموم البشر ليست تامَّة، نعم هي مقتضية للدلالة على انَّ السيد المسيح سوف تُصادفه جميع المراحل التي هي حتمٌ على عموم البشر بما في ذلك الموت، فهذا هو أقصى ما تدلُّ عليه الآية المباركة، فهي إنَّما كانت تحكي ما نطَقَ به السيد المسيح وهو في المهد وحينذاك لم يكن قد صادفه الموت ولم يكن قد تجاوز المرحلة الأولى من المراحل التي يمرُّ بها الإنسان وهي الولادة، لذلك عبَّر عن هذه المرحلة بالفعل الماضي فقال: ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ﴾، وأما حين تحدَّث عن المرحلة الثانية وهي الموت عبَّر عنها بالفعل المضارع المفيد للاستقبال فقال: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ فالموت لم يكن قد وقع عليه حينذاك

ولا بعده بسنين، فهو إذن كان يُخبر عن انَّ الموت سوف يُصادفه يوماً ما إلا انَّه لم يُحدِّد ذلك اليوم وهل سيطول أمدُه أم لا.

وأما الآية من سورة النساء فهي متصدِّية لنفي ما يعتقده اليهود من أنَّهم قد قتلوا السيد المسيح وصلبوه، وكذلك هي تنفي ما يعتقده النصارى من انَّه كان قد قُتل حقّاً وقد تمَّ صلبُه.

فهي تنفي دعوى انَّ مصير السيد المسيح عليه السلام كان بالنحو الذي يعتقده أهل الكتاب، وليست بصدد النفي لوقوع الموت عليه ولو بعد حين، طال أمدُه أو قصُرَ، فإنَّ ذلك مما لم تكن الآية بصدد نفيه أو إثباته.

وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فأقصى ما يقتضيه ظهورها هو انَّ السيد المسيح عليه السلام قد تمَّ رفعه من الأرض، وذلك لا يعني انَّه لن يموت أبداً حتى يكون ما ورد في هذه الفقرة من الآية منافياً لما ورد في سورة مريم من أنَّ الموت سوف يُصادف السيدَ المسيح كما هو شأن سائر الناس، فرفعُ السيد المسيح حيّاً لا يمنع من وقوع الموت عليه بعد ذلك ولو بإرجاعه إلى الأرض وعند حلول أجله يقبض الله تعالى روحه فيُصبح عند ذلك في الأموات أو إماتته وهو في المحلِّ الذي رُفع إليه، فكلُّ ذلك لا تنفيه الآية التي أفادت انَّ الله تعالى قد رفع عيسى عليه السلام إليه.

بحث في مناشئ دعوى التنافي:

أ- استظهار أنّه مات من قوله: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾:

فدعوى التنافي بين قوله تعالى على لسان عيسى: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[1] إلى قوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إذا كانت ناشئة عن استظهار تحقّق الموت لعيسى من قوله: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ فذلك من الوهم البيِّن كما اتَّضح، إذ انَّ قوله: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ لم يكن سوى إخبارٍ منه عن أنَّ الموت سوف يقع عليه كما هو شأن سائر البشر، فمن السفاهة بمكان توهُّم انَّ عيسى عليه السلام كان يُخبر عن نفسه وهو في المهد انَّه قد مات فعلاً.

فحيث انَّ الآية لا تدلُّ على اكثر من الإخبار عن انَّه سيموت لذلك لا تكون منافية لإنكار القرآن قتله وصلبه، لأنَّ الآية من سورة مريم وإنْ كانت قد أخبرت عن انه سوف يموت لكنَّها لم تُخبر عن انَّ موته سوف يكون بالقتل والصلب، وكذلك فإنَّ إخبار القرآن عن رفعه لا يُنافي ما أفادته الآية من سورة مريم، إذ انَّ أقصى ما دلَّت عليه الآية من سورة مريم انَّه سوف يموت، فهي لم تُخبر عن انَّه سوف يموت قبل رفعه

١- سورة النساء الآية/١٥٧.

حتى يكون رفعه حيًّا منافياً لما أفادته الآية من سورة مريم، كما انَّ الرفع لا يمنع من حتميَّة وقوع الموت عليه ولو بعد حين.

ب- استظهار أنّه مات لقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ..﴾:

وإذا كانت دعوى التنافي ناشئة عن استظهار إرادة الموت من كلمة الرفع، فتكون آية: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ منافية لقوله: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ على أساس انَّ معنى الموت المُستظهَر من قوله: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ هو الموت المتعارف أي الذي يكون بمثل القتل أو المرض أو ما أشبه ذلك، وأما الموت بنحو الرفع فهو ليس من الموت المتعارف فيكون بين الآيتين تنافٍ، لأنَّ الآية من سورة مريم تُخبر عن انَّ عيسى سوف يموت بالموت المتعارف، والآية من سورة النساء أخبرت أنَّ عيسى مات بالرفع.

فلو كان ذلك هو منشأ دعوى التنافي بين الآيتين فجوابه إنَّ استظهار معنى الموت من لفظ الرفع الوارد في الآية ليس تامًّا، ولو سلّمنا جدلاً انَّ معنى الرفع في الآية هو الموت فإنَّ استظهار ذلك لا ينتهي إلى وقوع التنافي بين آية الرفع و الآية من سورة مريم، وذلك لأنَّ الآية من سورة مريم أفادت انَّ عيسى سوف يموت، ومعنى انّه سوف يموت هو انَّ روحه سوف تُفارق جسده فيُصبح جسده جثةً هامدة لا حراك فيها ولا حياة، فهذا هو المتبادر عرفاً من معنى الموت، فليس لمنشأ المفارقة

للحياة ولا لموضع تحقُّقها ولا لكيفيَّة وقوعها دخلٌ في صدق عنوان الموت عليها بل إنَّ مجرد المفارقة للحياة وصيرورة الجسد جثةً لا حِراك فيها يُصحِّح عرفاً صدق عنوان الموت.

الموت بالرفع يعني انَّه لم يمت بالصلب والقتل:

وعليه فموتُ عيسى عليه السلام بالرفع لو كان مُسلَّماً فإنَّه محقِّقٌ للآية من سورة مريم لا انَّه منافٍ لها، وذلك لأنَّ عيسى في الآية المذكورة أخبر عن انَّه سوف يموت وها هي الآية من سورة النساء تُصدق قوله وتُخبر عن انَّ عيسى قد وقع عليه الموت، نعم لو كان عيسى عليه السلام قد أخبر في سورة مريم انه سوف يموت بالقتل أو المرض أو ما أشبه ذلك فإنَّ موته بعد ذلك بالرفع يكون منافياً لما أخبر به عن نفسه في سورة مريم إلا انَّ الأمر لم يكن كذلك، إذ لم يُخبر عيسى في الآية المذكورة عن أكثر من انَّه سوف يموت أي انَّ روحه سوف تُفارق جسده.

ومتى تحقَّق ذلك في سماءٍ أو أرض بالأسباب الطبيعية أو غيرها فإنَّ وقوع ذلك يكون تحقيقاً لما أخبر به عن نفسه من وقوع الموت عليه، فتكون آية الرِفع مُصدِّقة للآية من سورة مريم لا انَّها مناقضة لها.

ج- توهُّم انَّ رفعه للسماء يقتضي امتناع موته:

وإذا كان منشأ دعوى التنافي توهُّم انَّ مقتضى الرفع هو امتناع وقوع الموت على عيسى، وذلك لأنَّ صيرورته في الملاء الأعلى ينفي إمكانيَّة

وقوع الموت عليه، وبه تكون آية الرفع منافية للآية من سورة مريم، حيث انَّها أخبرت عن انَّ عيسى سوف يموت وآية الرفع تنفي إمكانيَّة وقوع الموت عليه.

احتمالان وجوابان:

أ- إنّ رُفع ميّتاً فلا معنى لموته بعد ذلك!

فالجواب هو انَّه إن كان المقصود من هذه الدعوى هو فهم الرفع على انَّه يعني القبض لروح عيسى وفصلها عن جسده ثم العروج بها حيثُ الملاء الأعلى فهذه هي الإماتة التي عالجنا احتمال إرادتها من مدلول آية الرفع وقلنا انَّه لوكان ذلك هو مدلول الرفع لكانت آية الرفع مصدِّقة للآية من سورة مريم لا أنَّها منافية لها.

فالرفع بهذا المعنى وإنّ كان يقتضي انَّ عيسى لن يموت بعده إلا انَّ عدم موته نشأ عن انَّه قد مات ولا معنى لأنّ يموت بعد موته إلا انّ يتعقَّب موتَه حياةٌ لكن ذلك خارج عن مورد الفرض.

ب- إنّ رُفع حيّاً فما المانع من موته بعد ذلك؟!

وإنّ كان المقصود من هذه الدعوى هو فهم الرفع على انَّه يعني أخذ عيسى حيّاً حيث الملاء الأعلى فذلك لا إشكال فيه إلا انَّ الأثر المدَّعى ترتُّبه على هذا الفرض وهو امتناع موته بعد صيرورته في الملاء الأعلى،

هذا الأثر وهذه النتيجة باطلة جزماً، إذ لا ريب انَّ مَن هم في الملاء الأعلى يموتون كما انَّ أهل الأرض يموتون، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1].

فأخذُ عيسى حيًّاً إلى الملاء الأعلى لا يمنع من وقوع الموت عليه عند حلول أجله المسمَّى له عند ربِّه جلَّ وعلا، ولهذا لا تكون آية الرفع منافية للآية من سورة مريم، لأنَّ أقصى ما تدلُّ عليه آية الرفع هو انَّ عيسى قد رُفع حيثُ الملاء الأعلى حيًّاً لكنَّها لا تدلُّ على انَّ حياته ستبقى للأبد، فهي لا تُثبت الأبديَّة لحياته حتى تكون منافية للآية من سورة مريم وغيرها من الآيات التي تدلُّ على انَّ عيسى يموت عند حلول أجله.

الحقيقة والصدمة:

والمتحصَّل ممَّا ذكرناه هو انَّه لا وجه لدعوى التنافي بين آية الرفع ونفي القتل والصلب وبين الآية من سورة مريم، وإنَّ شعور المُثير للشبهة بالصدمة والمفاجئة من آية نفي القتل والصلب عن السيد المسيح لم ينشأ عن توهُّم التنافي بين الآيتين وإنَّما نشأ عن انَّ آية نفي القتل والصلب قد أحدثَتْ شرخاً في نفسه ومشاعره لمنافاتها لواحدٍ من أُصول

١- سورة الرحمن الآيتان/٢٦-٢٧.

ما يعتقده في مصير السيد المسيح عليه السلام، فهو قد نشأَ على الاعتقاد بأنَّ المسيح المخلِّص قد فدى الخاطئين بدمه وكان ارتفاع جسده على أعواد الصليب كفارةً يدرأُ بها عن الخاطئين ما كانوا قد اجترحوه في حقٍّ الرب، فهو بجسده المعلَّق على الصليب وبدمه النازف يكون قد طهَّر الإنسان من الخطايا، فلأنَّ مُثير الشبهة كان قد نشأ على ذلك فحين بدَّد القرآنُ هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ شعُرَ بالصدمة، ذلك لأنَّ الآية قد فاجئته بما لم يكن ينتظره فأخذ يخبطُ عشواءَ يبحث عمَّا يُعيدُ إلى قلبه سكونَه شأنُه شأنُ كلٍّ من أَلِفَ الوهم وأَنسَ به فإنَّ مثله يستوحشُ الحقيقة، فإذا ما برقتْ في عينه غضَّ عن لمعانها طرفَهُ وأشاح عنها وجهه.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الواحدة والثلاثون

اختلافُ عدد الملائكة اللذين تحدّثوا إلى مريم

الشبهة الواحدة والثلاثون

اختلافُ عدد الملائكة اللذين تحدَّثوا إلى مريم

ذكر القرآن في سورة آل عمران انَّ جمعاً من الملائكة تحدَّثوا إلى مريم العذراء ولكنًّه في سورة مريم ذكر انَّ الذي تحدَّث إليها كان ملاكاً واحداً: ﴿رُوحَنَا﴾.

ففي سورة آل عمران يقول القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[1] ويقول أيضا في نفس السورة: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[2] ولكنه يقول في سورة مريم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا

١- سورة آل عمران الآية/٤٢ .

٢- سورة آل عمران الآية/٤٥.

رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾[١] ويقول أيضا في نفس السورة: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[٢].

وقد أجاب المسلمون عن ذلك أنَّه "ربَّما" كانت هناك مناسبتان لحديث الملائكة مع مريم، وإجابة ذلك هي أن البشارة بشيء تتمُّ مرةً واحدة، وفي المرة الأخرى تُصبح البشارة "قديمة" أي لا تُسمَّى بشارة.

١- سورة مريم الآية/١٧.

٢- سورة مريم الآية/٢٠.

الجواب

الجواب على وجهين:

الوجه الأول: على فرض انّها حادثةٌ واحدة:

لو كانت المحادثة التي وقعت لمريمعليها السلام مع الملائكة واحدة وانّه لم يتم التبشير لها بإنجاب السيد المسيح إلا مرةً واحدة فإنَّ ذلك لا يُفضي إلى توهُّم انَّ القرآن قد اختلف نقلهُ لهذه الواقعة لمجرَّد انَّه أفاد في سورة آل عمران انَّ الذي بشَّر مريم كانوا جمعاً من الملائكة، وأفاد انَّ الذي بشَّرها بالسيد المسيح في سورة مريم كان ملَكاً واحداً، فإنَّ مثل ذلك ليس من الإختلاف في النقل كما توهَّمَ صاحبُ الشبهة، وذلك لوضوح انَّه حين يُبعث وفدٌ إلى أحدٍ لتبليغه رسالةً محدَّدة من قِبَل السُّلطان مثلاً فإنَّ الذي يتصدَّى لتبليغ الرسالة واحدٌ من الوفد، ويكون ذلك عادةً في محضر مجموع الوفد، وبعدئذٍ يُقال في مقام الإخبار عن هذه الواقعة: نقل الوفد رسالةَ السلطان إلى فلان في حين انَّ الذي بلَّغ رسالة السلطان كان واحداً من الوفد وليس مجموع الوفد إلا انَّ المصحِّح

لنسبة النقل والتبليغ للمجموع هو انَّهم إنَّما ذهبوا وحضروا مجلس المرسَل إليه لهذه الغاية، فهم جميعاً مكلَّفون بحمل هذه الرسالة من السلطان إليه، غايته انَّ طبيعة الحال تقتضي أنْ يكون المتصدِّي لتبليغ الرسالة واحداً منهم لا جميعهم.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾(١) ليس معناه انَّ الملائكة بشَّروا السيدة مريم بصوتٍ واحد فإنَّ ذلك خلاف الظاهر جداً، وكذلك فإنَّ تبليغهم لذات الرسالة والبشارة واحداً بعد واحد في مجلسٍ واحد خلافُ الظاهر، فإنَّه من اللغو الذي لا يتَّفق وقوعه من العقلاء في مثل هذا الفرض، فهم وإنْ كانوا قد جاؤوا جميعاً لتبليغ الرسالة من عند الله تعالى إليها إلا انَّ الغرض من بعثهم جميعاً هو التكريم للسيدة مريم والتنويه على انَّها ذات مقامٍ وحظوةٍ عند ربِّها كما هو ديدن العقلاء عندما يروم أحدهم من ذوي الوجاهة أنْ يبعث برسالةٍ إلى رجلٍ محظيٍّ عنده أو صاحب وجاهةٍ ومقام فإنَّه يبعث الرسلة إليه ضمن وفدٍ من خاصتّه، وقد يبعث لهذه الغاية عدداً من أبنائه تعبيراً عن إجلاله للمرسَل إليه، وقد يكون الغرض هو بعث الاطمئنان في نفس المرسَل إليه، وقد يكون الغرض هو التعبير عن أهمية المضمون الذي اشتملت عليه الرسالة.

١- سورة آل عمران الآية/٤٥.

فإنفاذ الرسالة ضمن وفدٍ رغم انَّ الذي يتصدَّى لتبليغها واحدٌ منهم تُبرِّره العديدُ من الغايات العقلائيَّة، وتلك الغايات هي منشأ ما نجده من جريان سيرتهم على ذلك في مختلف الأعصار، فلذلك نجد في وقتنا الراهن ما عليه سيرة الرؤساء والملوك، فهم يبعثون وفداً يصفونه بأنَّه رفيع المستوى ويترأس هذا الوفد رجلٌ هو أعلاهم منصباً، ويكون هو المتصدِّي لتبليغ الرسالة إلى رئيس تلك الدولة، ونجد انَّ نقَلة الأخبار في مقام النقل لخبر تبليغ الرسالة ينسبون تبليغها تارةً لمجموع الوفد فيقولون مثلاً: إنَّ الوفد قد بلَّغ الرئيس رسالة الملك، وتارةً ينسبون تبليغ الرسالة إلى مسئول الوفد فيقولون: إنَّ فلاناً وهو رئيس الوفد قد بلَّغ رسالة الملك، فرغم انَّ الخبرين متصدِّيان لنقل واقعةٍ واحدة إلا انَّنا لا نجد بينهما اختلافاً وتهافتاً مع انَّ الخبر الأول نسب تبليغ الرسالة إلى مجموع الوفد، ونسبها الخبرُ الثاني إلى واحدٍ من الوفد، فكلا الخبرين صادقان، وذلك لأنَّ نسبة التبليغ إلى مجموع الوفد في الخبر الأول كان باعتبار انَّ مجموع الوفد مكلَّفون بهذه المهمة، وقد جاؤوا وحضروا لهذه الغاية، وأما نسبة التبليغ لواحدٍ من الوفد في الخبر الآخر كان باعتباره المتصدِّي للمشافهة أو التسليم للرسالة.

ولهذا فإنَّ ما ورد في سورة مريم من نسبة الحديث مع مريم إلى ملَكٍ واحد لا يُنافي ماورد في سورة آل عمرآن من نسبة الحديث إلى

مجموع الملائكة المرسلين إلى مريمعليها السلام فإنَّ نسبة الحديث إلى الروح جبرئيل في سورة مريم كان باعتبار انَّه المتصدِّي لنقل البشارة إلى مريم، وأما نسبة الحديث إلى مجموع الملائكة في سورة آل عمران فكان بلحاظ انَّ المجموع كانوا مكلَّفين بالنزول إلى مريمعليها السلام وحمل البشارة إليها بالسيد المسيحعليه السلام.

والذي يُؤيِّد انَّ الذي تحدَّث إلى مريم كان ملَكاً واحداً وليس مجموع الملائكة اللذين نزلوا بالبشارة إليها، الذي يُؤيِّد ذلك انَّ الآيات من سورة آل عمران بعد أنْ نسبت الحديث بالبشارة إلى مجموع الملائكة: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ عادت فنسبت المحادثة إلى واحدٍ من الملائكة، فهي حين بلَّغتها البشارة: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾[١] فأجابها الملك: ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فنسبت الآية القول إلى المفرد ولم تنسبه إلى مجموع الملائكة.

النتيجة:

وبذلك يتضح انَّ المحادثة التي أخبرت عنها سورةُ آل عمران لو كانت هي عينها التي أخبرت عنها سورة مريمعليها السلام فإنَّه لا يكون ثمة تنافٍ

١- سورة آل عمران الآية/٤٧.

بين نسبة الحديث تارةً للملائكة كما في سورة آل عمران ونسبته تارةً أخرى لملَكٍ واحدٍ من الملائكة كما في سورة مريمعليها السلام.

الوجه الثاني: افتراض أنّها حادثتان:

على انَّه لا يتعَّين اتحاد الواقعة في السورتين، فمن المحتمل قوياً انَّ محادثة الملائكة لمريم التي أخبرت عنها سورة آل عمران هي غير ما وقع للسيدة مريم من حديثٍ مع الأمين جبرئيل الذي أخبرت عنه سورة مريم.

تكرُّر البشارة:

وأما ما ذكره صاحب الشبهة من انَّ البشارة إذا تكرَّرت فإنَّها لا تكون في المرة الثانية بشارة فهو غريب، إذ انَّ البشارة لم تُذكر إلا في سورة آل عمران، ففيها قالت الملائكةُ لمريمعليها السلام: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وأما في سورة مريم فلم يرد لفظ البشارة ولا ما يرادفه وانَّ الذي ورد في سورة مريم هو إنَّ روح الله جبرئيلعليه السلام تمثَّل لها على صورة إنسان وبلَّغها انَّه رسولٌ من الله تعالى ومكلَّفٌ بأنْ يهبَ لمريم غلاماً زكيّاً قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى

يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۞ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[1].

فلم يرد لفظ البشارة أو ما يُرادفه في سورة مريمعليها السلام، على انَّه لا يُعتبر في صدق البشارة لغةً أنْ لا يكون مضمونها قد تمَّ الإخبار به في وقتٍ سابق، فإنَّ هذا القيد لم يُؤخذ في صدق مفهوم البشارة لغةً ولا عرفاً وإنْ كان كثيراً ما يُستعمل لفظ البشارة في ذلك ولكنَّه يستعمل كثيراً أيضا في مطلق الإخبار بما يُسرُّ ويُفرح أو الإخبار بما فيه نفعٌ للمخبَر له سواءً كان الإخبار بهذا الأمر المُفرِح أو النافع قد سمعه متلقِّي الخبر سابقاً أو لم يكن قد سمعه.

وعليه فمن غير المُستبعَد أنْ تكون الواقعة المحكيَّة في سورة مريم هي غير التي أخبرت عنها سورة آل عمران، فتكون الملائكة قد بشَّرت السيدة مريم بالسيد المسيح ثم بعد زمنٍ قصيرٍ أو طويل حان الوقت الذي شاء الله تعالى فيه إنجاز وعده لها فهبط عليها جبرئيل وأنبأها بالمهمَّة التي كُلِّف بها ثم نفخ فيها من روح الله تعالى فحبلت بعيسى عليه السلام.

١- سورة مريم الآيات/١٦-٢٢.

لا مانع من تعدُّد الواقعة:

وأما تقارب جواب السيدة مريم بعد تبشير الملائكة لها مع جوابها بعد أنْ أخبرها الأمين جبرئيل بما هو مكلَّفٌ به فلا يمنع من تعدُّد الواقعة، إذ انَّ مفاد الخبر الذي حملته الملائكة لمريم متَّحدٌ من حيثُ المضمون مع الخبر الذي جاء به الأمينُ جبرئيل لذلك فمن المناسب اتَّحاد الجواب أو تقاربه خصوصاً وانَّ مفاد الخبر مستوحَشٌ وغيرُ مألوف، وهو كذلك موجبٌ للتهمة التي كان الواضح من جوابها التوجُّس منها، فكانت ترى نفسها مُنساقةً إلى التعبير عن استيحاشها وخشيتها من الأثر المترتِّب على حملها دون زواج.

ولعلَّه لذلك تمَّ الإعداد والتهيئة لنفسيتها قبل إبرام الأمر بواسطة إخبارها أولاً بكيفيَّةٍ تبعث على الاطمئنان حيث هبط عليها عددٌ من الملائكة وأخبروها أولاً انَّ الله تعالى قد طهَّرها واصطفاها على نساء العالمين ثم أمروها بأنْ تقنت وتخضع لأمر ربِّها وتُقيمُ على طاعته وعبادته، وبعدئذٍ بشَّروها بالسيد المسيح وأخذوا يتَّحدثون إليها عن مقامه السامي عند ربِّه وانَّه سيكون وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين ويكلِّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين، كلُّ ذلك لغرض بعث الأنس والاطمئنان والسكينة قي قلب مريم عليها السلام وحين أجابت عن ذلك بأنَّه كيف يقع منها حبْلٌ دون مسٍّ بشر ذكَّروها بقدرة الله تعالى

على كلٍّ شيء وانَّه إذا أراد شيئاً فإنَّما يقول له كن فيكون ثم عادوا بعد الجواب عن استيحاشها فأخذوا في توصيف السيد المسيح بالمزيد من الصفات المعبِّرة عن مقامه السامي وانَّ الله تعالى سوف يُعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وسوف يجعل منه رسولاً إلى بني إسرائيل، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ❋ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ❋ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ❋ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ❋ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ❋ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ❋ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(١).

فكان في هبوط عددٍ من الملائكة وتبشيرهم لمريم عليها السلام بالنحو الذي أفادته الآيات من سورة آل عمران تثبيتٌ لفؤادها وإعدادٌ لنفسيتها كونها سوف تنوءُ بمسئوليةٍ مُضنية وغير مسبوقة. فالاعتبار ولحنُ الآيات من

١- سورة آل عمران الآيات/٤٢-٤٩.

سورة آل عمران يُساعد على تأكُد احتمال تعدُّد الواقعة وانَّ الذي وقع لمريمعليها السلام مع الأمين جبرئيل كما في سورة مريم كان مسبوقاً بتبشير الملائكة.

ظاهر الآيات يُفيد التعدُّد:

هذا مضافاً إلى انَّ ظاهر الآيات من سورة مريم هو انَّ جبرئيل نزل لإنفاذ الأمر الإلهي المبرَم، فهي بعد أنْ استعاذت منه حين دخل عليها متمثِّلاً في صورة إنسان أخبرها بأنه جاء لإنفاذ الأمر الإلهي وانَّه مكلَّف ليهب لها فعلاً غلاماً زكيًا، وحين خاطبته بأنه كيف يكون لها غلام ولم يمسسها بشر أجابها بأنَّ ذلك هيِّنٌ على الله تعالى ثم أخبرها انَّ ذلك صار أمراً مقضيًّا غيرَ قابلٍ للمراجعة وحينذاك حبلت بعيسىعليه السلام: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ﴾[1] أو انَّ الله تعالى أخبر انَّ ذلك صار مقضيًّا حيث حبلتْ به بعد مخاطبة جبرئيلعليه السلام لها، فالمُستظهَر من الآيات الواردة في سورة مريم انَّها متصدِّية لبيان كيفيَّة إنجاز الوعد الإلهي لمريم، وعلى خلاف ذلك ما هو مُستظهَر من الآيات الواردة في سورة آل عمران فإنَّها ظاهرة في تصدِّي الملائكة للإخبار بالوعد الإلهي دون إنجازه كما في سورة مريم.

١- سورة مريم الآيتان/٢١-٢٢.

فليس في البين ما يوجب احتمال اتّحاد الواقعة سوى اتّحاد جواب السيدة مريم للملائكة ولجبرئيل، وقد ذكرنا انَّ ذلك ليس مانعاً من البناء على تعدُّد الواقعة وانَّ الاعتبار يُساعد على تكرارها لذات الجواب كون الأمر مستوحَشاً وموجباً للخشية من الوقوع في التهمة، وهذا التوجُّس الذي انتاب السيدة مريم ظلَّ ماثلاً في خلَدِها حتى بعد أنْ حبلت بعيسى عليه السلام رغم كلِّ التطمينات، فهي بعد أنْ حبلت بعيسى وكانت في حالة المخاض قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[١] وحينذاك تولّى السيد المسيح عليه السلام تطمينها: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾[٣] فأخبرها انَّه الذي سيتولى إثبات براءتها.

مؤيِّد لتعدُّد الواقعة:

على انَّ ثمة أمراً يصلح لتأييد تعدُّد الواقعة، وهو انَّ جواب السيدة مريم للملائكة في سورة آل عمران كان بنحو المناجاة لربِّها: ﴿قَالَتْ رَبِّ

١- سورة مريم الآية/٢٣.

٢- سورة مريم الآية/٢٤.

٣- سورة مريم الآية/٢٦.

أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[١] وأما جوابها في سورة مريم فكان خطاباً منها لجبرئيل: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[٢] فإنَّ هذا الاختلاف يُساهم في تأييد احتمال تعدُّد الواقعة.

الخلاصة:

والمتحصَّل ممَّا ذكرناه انَّه لو كان البناء هو اتِّحاد الواقعة التي أخبرت عنها كلٌ من سورتي مريم وآل عمران فإنَّ نسبة المحادثة للملائكة تارةً ونسبتها للأمين جبرئيل عليه السلام تارةً أخرى لا يُعدُّ من الاختلاف في النقل، وذلك لوضوح انَّ نسبة الإخبار لمجموع الملائكة ليس بمعنى تصدِّي مجموع الملائكة لتبشير السيدة مريم بل هو بمعنى انَّ أحدهم قد تصدَّى لتبشيرها في محضرهم، ونُسب التبشير إليهم جميعاً نظراً لكونهم قد هبطوا على مريم عليها السلام لهذه الغاية، فهم جميعاً مكلَّفون بحمل البشارة إلى مريم إلا انَّ مقتضى طبيعة الحال هو أنْ يتصدَّى واحدٌ منهم للإخبار لا انَّهم جميعاً يُخبرونها بصوتٍ واحد أو يخبرها واحدٌ بعد الآخر بذات الخبر، فإنَّ ذلك لا يتَّفق عادةً بل يُعدُّ من فعل اللغو الذي لا يصدر عن

١- سورة آل عمران الآية/٤٧.

٢- سورة مريم الآية/٢٠.

الحكيم، على انّ من غير المتعيَّن اتحاد الواقعة فإنّ من المحتمل قوياً تعدُّد الواقعة كما اتَّضح مما تقدم.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثانية والثلاثون

تشبيه حملة التوارة بالحمار

الشبهة الثانية والثلاثون

تشبيه حملة التوارة بالحمار

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، هنا أهل الكتاب يعرفون الكتاب كما يعرفون أبنائهم..، وهذا مناقض لما ورد في سورة الجمعة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2] وهنا يُشبههم القرآن بالحمار الحامل كتباً لا يدرى ما فيها.. فكيف كانوا يعرفون محمداً كنبيٍّ ورسولٍ لله من كتابهم كما في الآية الأولى ومع ذلك لا يدرون ما فيه كما لا يدرى البهيم ما في الكتب المحمَّلة على ظهره، فأيُّ الآيتين هي الصائبة؟

١- سورة الانعام الآية/٢٠.

٢- سورة الجمعة الآية/٥.

الجواب

نعم، التحميل يقتضي العلم:

المراد من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ هم اليهود كُلِّفوا بحمل التوراة أي بالإذعان بما اشتملت عليه من معارف وبالالتزام بما اشتملت عليه من شرائع وأحكام.

فكلمة حُمِّلوا بحسب مدلولها اللغوي والعرفي تعني أنَّهم كُلِّفوا، فإذا قيل مثلاً "حمَّل الأمير شأن رعاية الثغور لقائد الجند" فإنَّ معنى ذلك هو انَّه كلَّفه مسئولية الرعاية والحفظ لثغور البلد.

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة التحميل في معنى التكليف في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[1] أي لا تكلِّفنا ما لا نُطيقه، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ

١- سورة البقرة الآية/٢٨٦.

تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾[١] أي إنَّ الرسول مسئولٌ عمَّا كُلِّف به وأنتم مسئولون عمَّا كُلِّفتم به.

فإذا كان المراد من قوله تعالى: ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ هو أنَّهم قد أُنيطت بهم مسئولية الإلتزام بما اشتملت عليه التوراة من معارف وأحكام فهذا يقتضي أنَّهم على علمٍ بما تضمَّنته التوراة، إذ انَّ التكليف بالشيء لا يتمُّ ولا يصحُّ إلا بعد الإحاطة والمعرفة بالمكلَّف به.

وجه التشبيه بالحمار:

وعليه فأهل الكتاب بما فيهم اليهود يعلمون بما في التوراة ولا يجهلونه، وأما تشبيههم بالحمار الذي يحمل أسفاراً فهو ليس من جهة جهلهم بما في التوراة بل لأنهم لم يلتزموا بما اشتملت عليه التوراة من مضامين، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي انَّهم لم يلتزموا بمقتضى المسئولية الإلهية التي أُنيطت بهم وهي العمل بما اشتملت عليه التوراة، وهذا معناه أنهم لم ينتفعوا بالهدى الذي جاءت به التوراة، فمثلهم في ذلك مثل الحمار الذي تُحمل عليه الكتب المشتملة على مختلف العلوم والمعارف إلا انَّه لا ينتفع بها ولا يجني من حملها إلا العناء والتعب، فهكذا هم اليهود حُمِّلوا التوراة وكلِّفوا بالاهتداء بهديها

١- سورة النور الآية/٥٤.

إلا انَّهم استحبُّوا العمى على الهدى فلم ينتفعوا بهدي التوراة شأنهم في ذلك شأن الحمار الذي لا ينتفع بما يُحمل عليه من كتب المعارف والحِكَم.

لا تناقض بين الآيتين:

فوجه الشبه بين اليهود والحمار الذي يحمل أسفاراً على ظهره هو أنَّ كلاً منهما لا ينتفع بما حُمِّل، وليس وجه الشبه هو أن كلاً منهما لا يعلم بما حمِّل حتى تكون هذه الآية مناقضة لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فهم يعرفون محمداً النبيﷺ بلا ريب كما أفاد القرآن بل يعرفون كلَّما اشتملت عليه التوراة من معارف إلا انَّهم كانوا يجحدون الحق ويُكابرونه، وقد أخطأوا بذلك حظهم فكان نصيبهم مما علموه من هدي التوراة كنصيب الحمار من الكتب المحمَّلة على ظهره، فكما انَّه لا ينتفع بها ولكنَّه يتحمَّل عناء ثقلها على ظهره فكذلك اليهود لم ينتفعوا بالتوراة و لكنَّهم يتحمَّلون وزر المسئولية والتكليف بها.

القرائن المؤكِّدة لوجه الشبه:

١- قرينة السياق:

والذي يؤكِّد أنَّ وجه الشبه -المراد من الآية- بين اليهود والحمار هو ما ذكرناه من عدم انتفاع كلٍّ منهما بما حُمِّل وانَّه ليس المراد من وجه الشبه هو انَّ كلاً منهما لا يعلم بما حُمِّل، الذي يؤكد ذلك انَّ الآية من سورة الجمعة كانت بصدد تمثيل اليهود وما آل إليه أمرهم للأميين المسلمين، وذلك لغرض تحذيرهم من الوقوع فيما وقع فيه اليهود، وقد أفادت السورة في مطلعها انَّ الأُميين قد بُعث فيهم الرسول ﷺ ليعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكيهم لذلك فليحذروا أن يكون مآل أمرهم إلى ما آل إليه أمرُ اليهود حيثُ كانوا هم أيضاً قد عُلِّموا التوراة إلا انَّهم لم يهتدوا بهديها، قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۞ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

١- سورة الجمعة الآيات/٢-٥.

فمقتضى سياق الآيات هو انّ اليهود كانوا على علم بالتوراة كما هو حال الأُميين اللذين علّمهم الرسولﷺ الكتاب والحكمة. ومن ذلك يتعيَّن المراد من تشبيه اليهود بالحمار الذي يحمل أسفاراً وان وجه الشبه هو عدم انتفاع كلٍ من اليهود والحمار بما حمل عليه.

٢- قرينة الوصف:

وثمة قرينة أُخرى على تعيُّن وجه الشبه فيما ذكرناه وهي انّ الآية التي اشتملت على تشبيه اليهود بالحمار ذيَّلت ذلك بذمِّهم ونعتهم بالكذب ووصفهم بالظالمين، ومن الواضح انَّه لو كان مراد القرآن من تشبيه اليهود بالحمار هو التعبير عن جهلهم وعدم درايتهم لما نعتهم بعد التشبيه بأنَّهم كاذبون وظالمون لأنّ الجاهل لا يُوصف بالكاذب والظالم، والذي يصحُّ ذمُّه بذلك إنَّما هو العالم فهو مَن يستحقُّ التشنيع والذم بالكذب والظلم.

ومن كلٍّ ذلك يتَّضح انّ الآية من سورة الجمعة لا تُنافي قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فإنّ الآية من سورة الجمعة لا تنفي العلم بالتوراة عن اليهود وإنَّما تنفي عنهم الإهتداء بالتوراة.

القرآن يؤكِّد كثيراً على أنّهم يعلمون!

هذا وقد تصدّى القرآن في آياتٍ عديدة للتأكيد على علم اليهود بما في التوراة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[١] فهم يُبدون ما يرتضون ويُخفون كثيراً ممّا يُنافي أهواءهم وذلك لا يتفق إلا لمن يعلم بكلٍّ ما في الكتاب.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[٢] فهم يُحرِّفون الكلم عن مواضعه والتحريف إنّما ينشأ عن عدم الارتضاء بما اشتمل عليه الكلم من المعاني، ومن البيِّن انّ عدم الارتضاء ثم السعي للتحريف هما فرع الفهم والعلم بمضامين الكلام غير المرضي الذي يُراد تحريفه، ثم قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[٣] والسعي لإخفاء كثيراً مما اشتمل عليه الكتاب لا يتمُّ إلا في فرض الإحاطة بمضامين الكتاب، فهم إذن

١- سورة الانعام الآية/٩١.

٢- سورة المائدة الآية/١٣.

٣- سورة المائدة الآية/١٥.

يعلمون بما في الكتاب المُنزَّل عليهم إلا انَّه ونظراً لاشتماله على ما ينتج إلزامهم بما لا يناسب أهواءهم ومفترياتهم لذلك فالوسيلةُ هي إخفاء تلك المواضع ليكونوا في أَمنٍ من احتجاج خصمهم بها عليهم.

الخلاصة:

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ وجه الشبه في الآية من سورة الجمعة بين اليهود والحمار الذي يحمل أسفاراً هو انَّ كلاً منهما لا ينتفع بما حُمِّل، و القرائن على ذلك:

القرينة الأولى: انَّ معنى قوله حُمِّلوا التوراة هو انَّهم كلِّفوا بما في التوراة والتكليف بالشيء فرع العلم به.

والقرينة الثانية: هي انَّ سورة الجمعة كانت بصدد تمثيل حال اليهود للأميين اللذين نصَّت الآيات من سورة الجمعة على انَّهم أي الأميين عُلِّموا الكتاب والحكمة، فمقتضى ذلك انَّ اليهود كانوا على علمٍ بالتوارة حتى يصحَّ التمثيل بهم.

والقرينة الثالثة: انَّ الآية التي شبَّهت اليهود بالحمار ذيَّلت التشبيه بذمٍّ اليهود ونعتهم بالكذب والظلم وكلا النعتين إنَّما يصحان في فرض العلم والدراية، وأما الجاهل فلا يذمُّ بالكذب والظلم.

والقرينة الرابعة: انَّ القرآن أكد في آيات عديدة على انَّ أهل الكتاب كانوا على علم بما أُنزل إليهم فيكون ذلك إِمارةً على عدم إرادة نفي العلم من تشبيه اليهود بالحمار الذي يحمل أسفارا، وعليه فلا يكون التشبيه مناقضاً لقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بل انَّ كلاً من الآيتين تقتضي إثبات العلم لليهود ونفي الالتزام بما علموا.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثالثة والثلاثون

المشركون يكتمون اللهَ حديثاً أو لا يكتمون

الشبهة الثالثة والثلاثون

المشركون يكتمون اللهَ حديثاً أو لا يكتمون

جاء في سورة الأنعام: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1]...!

أما في سورة النساء فجاء ما يُنافي ذلك ويُناقضه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾[2] ففي الآية الأولى نرى انَّهم كذبوا وكتموا وفي الثانية لا يكتمون أي لا يكذبون ولا يستطيعون الكذب...!

١- سورة الأنعام الآيتان/٢٢-٢٣.

٢- سورة النساء الآية/٤٢.

الجواب

منشأ الدعوى:

إنَّ دعوى التنافي بين الآيتين نشأ عن توهُّم انَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هو انَّ المشركين والعصاة يوم القيامة لا يستطيعون الكذب والإخبار -عند الحساب والمُساءلة- بما يُخالف واقعهم، فلو كان هذا الفهم هو مراد الآية لأمكن الإدَّعاء بمنافاتها ومناقضتها لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأنَّ هذه الآية صريحةٌ في انَّهم كذبوا، وذلك لأنَّهم مشركون واقعاً ورغم ذلك قالوا وأقسموا بأنَّهم ليسوا مشركين، فمؤدَّى هذه الآية انَّهم استطاعوا أنْ يكذبوا على الله تعالى مع انَّ الآية الأخرى أفادت أنَّهم لا يستطيعون أنْ يكتموا الله حديثا.

هل يكذبون يوم القيامة؟

فتوهُّم انَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هو انَّهم لا يستطيعون الكذب على الله يوم القيامة هو ما نشأت عنه دعوى التنافي، لكنَّ هذا الفهم للآية المباركة لا يعدو الوهم، فليس المراد قطعاً من قوله

تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هو انَّهم لا يكذبون على الله تعالى عند الحساب ولا يستطيعون الكذب، وذلك لأنَّ القرآن قد صرَّح في أكثر من مورد انَّ المشركين والعصاة يكذبون على الله تعالى يوم القيامة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ ويَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾[١] فالآية صريحةٌ في انَّهم يحلفون كذباً برجاء انَّ ذلك ينفعهم ويدفع عنهم ما يحذرون إلا انَّ الله تعالى لمَّا كان مطَّلعاً على حقائقهم وصَفَهم بأنَّهم كاذبونَ في دعواهم وفيما حلفوا عليه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٢] فهذه الآية صريحةٌ أيضاً في انَّ العصاة يكذبون يوم القيامة عند المُساءلة فيدَّعون انَّهم لم يعملوا سيئةً مطلقاً رغم انَّهم كانوا قد اجترحوا السيئات في الدنيا، لذلك فإنَّ الله تعالى يُجيبهم بالتكذيب لدعواهم فيقول: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يأمر بإدخالهم جهنم، وذلك تكذيب آخر لدعواهم أنَّهم لم يعملوا من سوءٍ في الدنيا.

١- سورة المجادلة الآية/١٨.

٢- سورة النحل الآيتان/٢٨-٢٩.

الآيةُ صريحةٌ في أنّهم يكذبون!

هذا مضافاً إلى انّ الآية مورد البحث قد صرّحت الآيةُ التي تليها أنّهم كذبوا فيما ادّعوه بأنّهم لم يكونوا مشركين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1]، فقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ صريحٌ في التصدّي لتكذيب دعواهم انّهم لم يكونوا مشركين.

الدعوى تُجافي الإنصاف!

فإذا كان القرآن قد صرّح في أكثر من مورد أنّ المشركين والعصاة يكذبون يوم القيامة عند المُساءلة والحساب فكيف يصحُّ البناء على انّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هو انّ المشركين والعصاة لا يكذبون يوم القيامة ولا يستطيعون الكذب؟! إنّ ذلك معناه انّ القرآن يقول إنّ المشركين والعصاة يوم القيامة لا يكذبون ولا يستطيعون الكذب وفي ذات الوقت يقول: هم يستطيعون الكذب يوم القيامة ويكذبون، إنّ مثل هذا التناقض الصريح جداً لا يصدر عن عاقلٍ ملتفت،

١- سورة الانعام الآيات/٢٢-٢٤.

ولا ينسبه منصفٌ لعاقلٍ ملتفت، فحتى لو تنزّلنا جدلاً وفرضنا انّ القرآن ليس من عند الله تعالى وانّه من كلام النبيّ محمدٍ صلى الله عليه وآله فإنّ أحداً لا يرتاب في انّ محمداً صلى الله عليه وآله كان عاقلاً بل لا يرتاب أحدٌ في انّه كان متميِّزاً في عقله وفطنته، وحينئذٍ كيف يصدر عنه هذا التناقض الصريح خصوصاً وانّه حريصٌ على الاحتفاظ بمصداقيّته.

ولو قِيل انّه نسيَ فوقع في هذا التناقض فإنّ جواب ذلك هو انّ هذا الفرض ممتنع الوقوع للقرآن، فهو ليس من قبيل مقالٍ كتبه صاحبه في وقتٍ ثم أودعه في خزانته أو نشره فمضى على نشره زمنٌ فنسيَ ما كان قد كتبه أو نسيَ بعض ما كان قد كتبه ثم كتب مقالاً آخر اشتمل على خبرٍ أو رؤيةٍ مناقضةٍ لما كان قد أخبر به أو تبنّاه في مقاله السابق، إنّ القرآن ليس من هذا القبيل، ذلك لأنّ آياته يتلوها النبيُّ صلى الله عليه وآله وكذلك المسلمون ليلَ نهار في الصلوات اليوميَّة الخمس المفروضة وفي النوافل وفي المحافل والخلَوات وفي الحضر والسفر ويدوِّنها كتَّابُ الوحي ويستنسخها منهم العارفون بالقراءة والكتابة ويتعاهدها سائر المسلمين بالحفظ والتلاوة رجاءً للثواب والتبصُّر والإتعاظ، وامتثالاً للأمر الحثيث من النبيِّ صلى الله عليه وآله على ذلك، ولقد كان يبعث القرّاء من أصحابه إلى المحافل والمجالس والمواطن التي أسلم أهلها يُعلِّمون الناس ما نزل من آيات الله تعالى، لذلك فالآيات التي نزلتْ في مكَّة كالتي نزلتْ في

المدينة حاضرةً في الذاكرة وفي الوجدان الإجتماعي، فهل يتعقّل منصفٌ والحالُ هذه أن ينسى النبيُّ صلى الله عليه وآله ما كان قد أورده من آيات حتى يأتي بنقيضها؟! وهل يتعقّل منصفٌ أنْ يغفل كلُّ هؤلاء المسلمين مجتمعين وكذلك الجاحدين عن التفطُّن لمثل هذا التناقض المزعوم رغم صراحته وفيهم المتميِّزون بالحفظ والفطنة، وفيهم المتربِّصون، وقد امتدَّ الزمن الذي عاشه النبيُّ صلى الله عليه وآله بينهم لسنين يتلو عليهم ما ينزل من آيات القرآن ويتلوه المسلمون في آناء الليل وأطراف النهار.

هذا والقرآن مليءٌ بالآيات التي تحضُّ على التدبُّر والتأمُّل في معانيه ومضامينه، وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وآله يُكثر من الحثِّ على التدبُّر في آيات القرآن، ثم إنَّ القرآن قد عرض نفسه على انَّه معصومٌ عن التناقض والاختلاف وتحدَّى بذلك الجنَّ والإنس، وهذا معناه الإغراء للنَّاس من المؤمنين والجاحدين على انْ يبحثوا عما ينقض هذا التحدِّي إنْ استطاعوا وهو في ذات الوقت يقتضي الحرص من الصَّادع بالقرآن والناطق به على عدم الوقوع فيما ينقض هذا التحدِّي.

والمتحصِّل إنَّ كيفية نزول القرآن والوقت الذي استغرقه وكيفيَّة تداوله والعناية المنقطعة النظير بنصوصه من الرسول صلى الله عليه وآله وسائر المسلمين في عهده وما يمثِّله القرآن للنبيِّ صلى الله عليه وآله حيثُ هو من أهمِّ أدلَّة الصدق على نبوَّته، ولقد كان نقضُه السلاحَ الأمضى للمتربِّصين لو

استطاعوا لكنهم لم يجدوا لذلك سبيلا رغم انَّ فيهم علماء أهل الكتاب وفيهم الأدباء وذوو الفطنة والمجادلة.

كلٌ ذلك يؤكِّد انَّ الوقوع في مثل هذا التناقض الصريح أمر لا يُمكن تعقُّله ولا ينسبه منصفٌ لمثل القرآن، ولهذا فدعوى انَّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هو انَّ المشركين والعصاة لا يكذبون ولا يستطيعون الكذب عند المساءلة يوم القيامة حتى يكون ذلك مناقضاً لما أفاده قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ هذه الدعوى لا تعدو الوهم كما اتَّضح مما تقدَّم.

المراد من الآية ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾

وأما ما هو المراد من الآية المباركة أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فأيّاً كان فلا ضير من الإلتزام به بعد انْ لم يكن مستلزماً للتناقض وإنْ كان الأظهر هو انَّ المراد من قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هو انَّ المشركين والعصاة لا يستطيعون إخفاء واقعهم وحقيقة المُعتَقد الذي كانوا عليه، ذلك لأنَّ الله تعالى مطَّلعٌ على سرائرهم، فهم وإنْ كانوا يكذبون ويُغلِّظون كذبهم بالأقسام والأيمان إلا انَّ واقعهم مكشوف وكذبهم مفضوح، لذلك قال الله تعالى بعد قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

كذبُهم ليس من الكتمان

فقولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وإنْ كان من الكذب لكنَّه حيث لا يُخفي الحقيقةَ عن المخاطَب لذلك فهو لا يُعدُّ من الكتمان، فكذبُهم بحكم العدم من جهة أثره، لأنَّ الأثر المُنتظَر من الكذب هو إخفاءُ الحقيقة عن المخاطَب، فإذا كان المخاطَب مطَّلعٌ تفصيلاً على الواقع فالكذب بالنسبة إليه فاقدٌ للأثر، لأنَّه لم يكتم عنه الواقع، وهو كذلك أي الكذب ليس كتماناً ممَّن صدر منه الكذب بعد ان كان يعلم يقيناً انَّ المخاطَب مطَّلعٌ تفصيلاً على واقع الحال، فهو وإنْ كان يكذب ولكنَّه يعلم انَّه لا يكتم بكذبه شيئاً عن المخاطَب، لذلك فهم لا يكتمون وإنْ كانوا يكذبون، والكذب ليس كتماناً منهم بعد أن كانوا على علمٍ بأنَّ الله تعالى لا يخفى عليه من واقعهم شيء، فهم إنَّما كذبوا انسياقاً مع مقتضى الطبيعة التي تدفع بالمشرف على الهلكة إلى التشبُّث بكل شيء وإنْ كان يراه واهياً أملاً في النجاة.

مثالٌ توضيحي:

فمؤدَّى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هو نظير قول القاضي للجاني: إنَّك لا تستطيع أنْ تكتم عليَّ ما فعلت مع افتراض انَّ القاضي مطَّلعٌ تفصيلاً على ما ارتكبه الجاني وعلم الجاني باطِّلاع القاضي على تفاصيل جنايته، فإنَّ قول القاضي للجاني إنَّك لا تستطيع أنْ تكتم عليَّ

ما فعلت ليس بمعنى انَّ الجاني لا يستطيع الكذب، فقد يكذب الجاني والقاضي يُكرِّر عليه إنَّك لا تستطيع أنْ تكتم جنايتك عليَّ، وما ذلك إلا لأنَّه أراد من نفي الكتمان أو القدرة على الكتمان التعبير عن انَّه مطَّلع على واقع جنايته وانَّ كذبه لا يُوجب خفاء الواقع عنه.

بيانٌ آخر للآية الشريفة:

ويُمكن بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ بتقريبٍ آخر هو أنَّ المشركين والعصاة وإنْ كانوا يكذبون كما هو مقتضى مفاد الآيات الأخرى إلا انَّ كذبهم لا يعود عليهم بمُحصِّل، لأنَّهم في منتهى الأمر سوف يُقرُّون بشركهم واجتراحهم للذنوب بعد أنْ يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وبعد أنْ تشهد عليهم أنبياؤهم وبعد أنْ تشهد عليهم الحفَظة من الملائكة وبعد أنْ يجدوا ما عملوه حاضراً في كتابٍ مرقوم، فحينذاك لا يجدون مندوحةً من الإقرار بشركهم وتجاوزِهم لحدود الله تعالى، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هو انَّهم سوف يُقرَّون بكلٍّ ما كانوا عليه من مُعتَقَدٍ وسلوك، فلن يستطيعوا النكران في منتهى الأمر، وأما انَّهم سيكذبون أولاً أو لن يكذبوا بل سيُبادرون إلى الإقرار فذلك ما لا تنفيه الآية ولا تُثبته وإنَّما هي متصدِّية إلى إفادة انَّهم سوف يُقرون بشركهم وذنوبهم، ولذلك لا تكون منافية لما أفادته الآيات الأخرى من انَّهم سوف يكذبون عند المُساءلة وسوف يحلفون لله تعالى كذباً كما كانوا يحلفون كذباً في الدنيا.

مثالٌ آخر توضيحي:

فمفاد الآية بناءً على هذا التقريب أشبه شيئ بقول المحقِّق للقاضي بعد أنْ يُنهي تحقيقه مع الجاني فيسأله القاضي هل كتم عنك شيئاً فيقول المحقِّق: إنَّه لا يستطيع أنْ يكتم عنِّي شيئاً أو يقول لم يكتم عنِّي شيئاً وقد أقرَّ بكلِّ شيء، فقول المحقق: إنَّه لا يستطيع أنْ يكتم عنِّي شيء لا يعني انَّ الجاني لم يكذب عليه عند التحقيق، فقد يكون الجاني قد كذب

١- سورة فصّلت الآيات/٢٠-٢٢.

عليه وأكثر من الكذب ولكنَّه في منتهى الأمر أقرَّ بجنايته، فكان المُحصَّلُ من التحقيق هو انَّه لم يستطع كتمان شيء عن المحقِّق.

وكذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فهو بمعنى انَّهم لن يستطيعوا ان يكتموا عن الله واقعهم بل سيلجئون إلى الإقرار بشركهم وذنوبهم، فهم لن يكتموا وإنْ كذبوا.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الرابعة والثلاثون

أيُّهما خُلق أولاً الأرض أو السماء؟

الشبهة الرابعة والثلاثون

أيُّهما خُلق أولاً الأرض أو السماء؟

ورد في القرآن في سورة البقرة قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الأرضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] ولكنّه في سورة النازعات يقول: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أم السَّمَاء بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأرضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا ماءهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2].

فبين الآيتين تناقض، لأنَّ الأولى ذكرت انَّ الله خلق ما في الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً، وفي الثانية أكمل السماء ثم هبط إلى الأرض فدحاها، فما الصحيح يا ترى؟! وهكذ فإنَّه ذكر في سورة فصِّلت انَّ الأرض هي التي خُلقت أولاً كما في سورة البقرة: ﴿قُلْ

١- سورة البقرة الآية/٢٩.

٢- سورة النازعات الآيات/٢٧-٣٣.

أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأرضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[1] أليس ذلك من التناقض؟!

السؤال الثاني:

الجبال التي هي الرواسى هل خُلقت أولاً قبل السماء كما في سورة فصِّلت أو انَّ السماء خُلقت أولاً قبل الجبال كما في سورة النازعات؟!

١- سورة فصلت الآيات/٩-١٢.

الجواب

منشأ الإشكال: هو استظهار تأخُّر خلق السماء زماناً من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الأرضِ جَمِيعاً﴾ في سورة البقرة، وبعد قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الأرضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ في سورة فصِّلت، فلو انَّ هذا الإستظهار قد تمَّ إسقاطه إما بإثبات عدم إرادة التأخُّر الزماني من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ وإمَّا بإثبات الإجمال فيما هو المراد منه فحينئذٍ ينتفي الإشكال من أساسه، فلا يكون ثمة من منافاة بين ما ورد في سورتي البقرة وفصِّلت وبين ما ورد في سورة النازعات.

ذلك لأنَّ ما ورد في سورة النازعات إذا كان صريحاً في انَّ السماء خُلقت أولاً وانَّ خلق الأرض ودحوها وقع ثانياً فإنَّ ذلك لن ينافي ما ورد في سورتي البقرة وفصِّلت بعد انْ لم يكن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ ظاهراً في تأخُّر خلق السماء عن خلق الأرض، فما تُثبته سورة النازعات لا تنفيه الآيتان من سورتي البقرة وفصِّلت، فلا تناقض بين الآيات الثلاث.

وبيان ذلك:

إنَّ حرف العطف "ثم" وإنّ كان يستعمل غالباً في إفادة الترتُّب والتأخُّر الزماني عن المعطوف عليه، فإذا قيل: جاء زيد ثم عمرو كان معنى ذلك انَّ عَمراً جاء ثانياً أي جاء متأخراً زماناً عن مجيء زيد، فحرف العطف "ثم" وإنّ كان يُستعمل غالباً في إفادة هذا المعنى إلا انَّ ذلك ليس مطِّرداً، فقد يُستعمل حرف العطف "ثم" مجرَّداً عن إفادة التأخُّر الزماني فيكون مدلوله متمحِّضاً في إفادة معنى التشريك أو إفادة معنى التشريك والمُهلة بين المعطوف والمعطوف عليه بقطع النظر عن انَّ المعطوف عليه وقع أولاً أو المعطوف وقع أولاً أو يُستعمل في إفادة التأخُّر البياني، فاستعمال "ثم" في هذه المعاني وماهو قريبٌ منها لدى العرف ليس عزيزاً بل هو شائع في الاستعمال العربي، ويتمُّ استظهار هذه المعاني وغيرها دون المعنى الأولي لحرف العطف "ثم" من ملاحظة القرائن المحتفَّة بالكلام المُستعمل فيه حرف العطف "ثم".

ومثال استعمال حرف العطف "ثم" مجرَّداً عن إفادة معنى التأخُّر الزماني ما لو عاب أحدهم زيداً أمامك فلم تقبل بذلك فأجبته: "إنَّ زيداً هذا شريكي في التجارة ثم إنَّه أخي وابن أبي" فإنَّ حرف "ثم" لم يُستعمل في هذه الجملة لإفادة معنى التأخُّر الزماني، إذ انَّ الأخوة ليست متأخرة قطعاً عن الشراكة في التجارة بل هي متقدِّمة زماناً عليها.

وكذلك حينما يُعاتبك أحدهم على إيذائك لزوجتك فيقول: "إنَّ هنداً زوجتك وأم أبنائك ثم هي إنًّها إنسان تجب الرعاية لمشاعره" فإنَّ حرف "ثم" لم يُستعمل في التأخُّر الزماني، إذ انَّ الإنسانية ليست متأخرة عن الزوجيَّة كما هو واضح.

ومن أمثلة ذلك أيضاً: "بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب".

ومثالٌ رابع: ما لو أحسنت إلى أحدهم فقابَلَ إحسانك بالإساءة فوبَّخته بقولك: هل نسيت إحساني إليك فإنِّي قد وهبتُك مسكناً تأوي إليه ثم إنِّي أنفقتُ عليك وعلى أبنائك ثم انِّي زوجتُك وحبوتُك الكثير من الأموال ثم إنِّي ربَّيتك حين كنتَ صغيراً.

فالواضح من استعمال حرف العطف "ثم" في الخطابات المذكورة في المثال لم يكن إلا لغرض تعداد مظاهر النعم والإحسان للمخاطَب، وليس المقصود منها بيان الترتيب الزماني بين هذه المِنَح.

ومن الأمثلة على استعمال حرف العطف "ثم" في إفادة غير التأخُّر الزماني قول الشاعر العربي:

ولقد سادَ، ثم سادَ أبوه،   ثم قد سادَ قبل ذلك جدُّه[1]

استعمال القرآن لـ (ثم) في غير التأخُّر الزماني:

وكذلك فإنَّ القرآن الكريم استعمل حرف "ثم" في إفادة غير التأخُّر الزماني، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[2] فإنَّ الهداية المنوط بها إدراك المغفرة وقبول التوبة ليست متأخرة زماناً عن التوبة والعمل الصالح بل هي مصاحبة ومزامنة لهما.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[3] أي إنَّ الإنسان لا يكون مُقتَحِماً للعقبة متجشِّماً الالتزام بتكليف ربِّه إلا بمثل فكِّ الرقبة وتخليصها من رقِّ العبودية والأسر وبمثل إطعام اليتيم والمسكين وذوي القرابة في ظرف جوعهم وحاجتهم ثم كان من اللذين آمنوا أي لا يكون كذلك مقتحماً

---

١ - تفسير مجمع البيان -الشيخ الطبرسي- ج٨ ص٣٨٧، شرح الرضي على الكافية - رضي الدين الأسترابادي- ج٤ ص٣٩٠.

٢- سورة طه الآية/٨٢.

٣- سورة البلد الآيات/١١-١٨.

للعقبة إلا بأن يكون مؤمناً، فالإيمان شرط سابقٌ ومصاحبٌ لتحقَق اقتحام العقبة بفكٍّ الرقبة والإطعام، لا انَّ المقتحم للعقبة هو الذي يفكُّ الرقبة ويُطعم ثم بعد فعل ذلك يُؤمن بالله بل انَّ الإيمان يجب أنْ يُزامن فعل فكٍّ الرقبة والإطعام أو يكون سابقا ومصاحباً لهما، فحرف ثم استُعمل في إفادة غير معنى التأخُّر الزماني.

أو انَّ المعنى هو انَّ الإنسان لا يكون مقتحماً للعقبة ولا يكون من اللذين آمنوا إلا بفكٍّ الرقبة والإطعام، وعلى كلا التقديرين يكون الحرف "ثم" استُعمل في غير التأخر الزماني.

إذا اتَّضح ماذكرناه يتَّضح انَّ معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ لا يتعيَّن مدلوله في إفادة التعقيب والتأخُّر الزماني عن خلق الأرض، فقد يكون مراد الآية متمحِّضاً في بيان خلق الله تعالى للأرض والسماء للتذكير بعظمته وسعة قدرته وعلمه وشمول امتنانه على عباده، حيث خلق لهم ما في الأرض جميعاً وخلق لهم السماوات السبع وما هي مشتملةٌ عليه من أفلاكٍ وأجرام، فالآية بصدد البيان لذلك وليست في مقام البيان لما تمَّ خلقه أولاً وما تمَّ خلقه ثانياً، وكذلك هي الآيات من سورة فصِّلت فإنَّها بصدد البيان لمراحل خلق الأرض والسماء وما فيهما ولم تكن بصدد البيان لما خُلق أولاً وما خلقه الله تعالى ثانياً.

فحرفُ العطف "ثم" لا يتعيَّن استعماله في الموردين لإفادة معنى التعقيب والتأخُّر الزماني، فقد يكون مستعمَلاً لعطف جملةٍ على جملة لإفادة اشتراك كلا الفعلين -المعطوف عليه والمعطوف- في أنَّهما منتسبان لله جلَّ وعلا كما يقال: زيد يُصلي ثم هو يصوم ويحج، فحرف "ثم" لم يُقصد منه انَّ الصوم والحج وقعا من زيد في وقتٍ متأخرٍ زماناً عن الصلاة، فقد يُزامن فعل الصوم أداء الصلاة وكذلك الحج، فالمقصود من حرف "ثم" في المثال هو عطف جملة على جملة لإفادة اشتراك هذه الأفعال من جهة انتساب صدورها إلى فاعلٍ واحد هو زيد.

وعليه فحرفُ العطف "ثم" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ ليس متعيِّناً في إفادة معنى التعقيب والتأخُّر الزماني بل هو متعيِّن في إفادة معنى العطف والتشريك محضاً، نظراً لقيام القرينة على ذلك.

فإنَّ حرف "ثم" إنَّما يُفيد معنى التعقيب والتأخُّر الزماني عند عدم قيام القرينة على إردة خلاف ذلك، وأما مع قيام القرينة على إرادة معنىً آخر فإنَّ الظهور يكون تابعاً لما تقتضيه القرينة كما هو الشأن في كلِّ لفظٍ وُضع لمعنى، فإنَّ إفادته لذلك المعنى إنَّما يكون في فرض عدم قيام القرينة على إرادة غيره.

فلفظ الأسد مثلاً وإنْ كان موضوعاً للحيوان المفترس إلا انَّه لا يصحُّ البناء على إرادة الحيوان المفترس من لفظ الأسد عندما يكون الاستعمال

للفظ الأسد مكتنفاً بقرينةٍ على عدم إرادته، فلو قال المتكلِّم: رأيتُ أسداً يرمي بالنبل ويضرب بالسيف فإنَّه لا يصحُّ البناء على انَّ مراده من لفظ الأسد هو الحيوان المفترس رغم انَّ هذا اللفظ موضوعٌ للحيوان المفترس، ومنشأ عدم صحة البناء على إرادة المتكلِّم للحيوان المفترس من لفظ الأسد في الجملة المذكورة هو انَّها مشتملة على قرينةٍ تقتضي إرادة معنىً آخر من لفظ الأسد.

وكذلك هو الشأن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ فإنَّ حرف "ثم" وإنْ كان بحسب ظهوره الأولي مقتضياً لإفادة معنى التعقيب والتأخُّر الزماني إلا انَّه ونظراً لقيام القرينة على عدم إرادة هذا المعنى يتحتَّم استبعاد هذا الاستظهار وتعيُّنه فيما يُناسب القرينة.

القرينة على عدم إرادة التأخُّر الزماني من حرف (ثم) في الآية

والقرينة هي الآيات من سورة النازعات، وهي قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[1] فإنَّ هذه الآيات صريحةٌ في انَّ خلق الأرض ودحوها قد تمَّ بعد خلق السماء، ومقتضى الجمع بين مفاد هذه الآيات وبين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ هو

١- سورة النازعات الآيات/٢٧-٣٠.

حمل حرف "ثم" في الآية على إرادة العطف والتشريك محضاً، وذلك لقاعدة حمل الكلام الذي يحتمل أكثر من معنى على ما يتناسب مع الكلام الآخر الصريح إذا كان كلا الكلامين صادراً من متكلمٍ واحد، فلا تصل النوبة للبناء على التناقض بين الكلامين إذا كان أحدهما محتملاً لأكثر من معنى وكان أحد هذه المعاني غير متنافٍ مع صريح الكلام الآخر لذات المتكلم، فإنَّ الكلام الصريح للمتكلِّم يكون بمثابة المفسِّر للكلام الآخر المحتمِل لأكثر من معنى.

ونظير ذلك ما لو قال المتكلِّم في مجلس: جاء زيد وخالد، وقال في مجلسٍ آخر جاء زيد وجاء بعده خالد، فإنَّ العرف لا يرمي المتكلِّم بالتناقض، فإنَّ الواو في الجملة الأولى وإنْ كانت مفيدة لمعنى المعيَّة والتزامن بحسب ظهورها الأولي إلا انَّها محتملة لإرادة الإفادة لتحقُّق المجيء محضاً دون النظر لإفادة معنى التزامن، فحيثُ كان هذا المعنى محتمل الإرادة وكان الكلام الآخر للمتكلِّم صريحاً في عدم إرادة التزامن لذلك يلزم حمل كلامه الأول على عدم إرادة التزامن واعتبار الكلام الثاني مُفسِّراً للكلام الأول وانَّ مراده منه هو الإفادة لتحقُّق المجيء محضاً وانَّه لم يقصد من كلامه الأول مجيئهما في عرضٍ واحد.

فالمتكلِّم العاقل لا يُكذِّب نفسه وليكن منشأ ذلك الخشية من الافتضاح والتهمة بعدم المصداقية، واحتمال نسيانه لكلامه الأول غير

متعقَّل في مثل القرآن، فإنَّه ليس من قبيل ما يكتبه أحدهم في بعض صحائفه ثم يُهمله فينسى ما كان قد كتبه فيُتعقَّل في حقِّه الكتابة بعدئذٍ لشيءٍ مناقضٍ لما كان قد كتبه أولاً إذا لم يكن صادقاً مع نفسه ومع الآخرين إلا انَّ القرآن ليس من هذا القبيل، ذلك لأنَّ آياته تُتلى ليل نهار في الصلوات اليوميَّة الخمس وفي النوافل وفي المحافل والخلوات، وكان الكثير من المسلمين يحفظونه عن ظهر قلب، فكلَّما نزلت آيةٌ عمدوا إلى حفظها والتيمُّن بالمداومة على تلاوتها رجاءَ الثواب والاتِّعاظ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله يحضُّهم على ذلك ويحضُّ كتَّابه على تدوينها والناسَ على استنساخها من الكُتَّاب وتداولها وحملها إلى كل بقعةٍ أسلم عليها رجلٌ أو إمرأة، فالآيات التي نزلت في أوائل المبعث النبوي الشريف شأنُها شأنُ الآيات التي نزلت بعد الهجرة، فليس شيءٌ منها إلا وهو يُتلى على نحو الدوام ليلَ نهار في المحافل والخلوات وفي الفرائض والنوافل وفي الحضر والسفر، فليس من المُتعقَّل أنْ لا يلتفت النبيُّ صلى الله عليه وآله والمسلمون مجتمعين طوال عقدين من الزمن إلى ما ورد في الآية من سورتي البقرة وفصِّلت وما ورد في سورة النازعات.

فلو كانوا قد فهموا من مجموعها ما فهمه صاحب الشبهة لكان التناقض والتكاذب بينها بيِّناً لا يخفى، فحتى لو فرضنا جدلاً انَّ النبيَّ الكريم صلى الله عليه وآله لم يكن نبيَّاً وانَّ القرأن كان من تأليفه كما يزعمون فإنَّه لا

يقبل لنفسه الفضيحة وذلك بأنّ يُخبر المسلمين تارةً بأنَّ الله تعالى قد خلق السماء قبل الأرض ويُخبرهم تارةً أُخرى بأنَّ الأرض خُلقت قبل السماء، إنَّ مثل هذا التكاذب في الإخبار لا يصدر من عاقلٍ حريصٍ على المصداقيَّة خصوصاً إذا كان يسعى جاهداً من أجل التثبيت لدعواه إنَّ ذلك يُعبِّر بجلاء عن انَّ مفاد الآيات من السِوَر الثلاث لم يكن بالنحو الذي فهمه صاحب الشبهة.

والمتحصَّل ممَّا ذكرناه انَّ الآيات التي وردت في سورة النازعات لمَّا كانت صريحةً في انَّ السماء خُلقت قبل الأرض فذلك يقتضي رفع اليد عن استظهار تأخُّر خلق السماء عن الأرض من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ وذلك لاحتمال عدم إرادة التعقيب والتأخُّر الزماني من حرف العطف "ثم" إذ انَّه كثيراً ما يُستعمل في غير هذا المعنى، وذلك وحده كافٍ في التثبُّت من عدم إردة هذا المعنى ممَّا ورد في سورتي البقرة وفصِّلت بعد التصريح من المتكلِّم نفسه في سورة النازعات انَّ السماء خُلقت قبل خلق الأرض، فما ورد في سورة النازعات يكون مفسِّرا وشارحاً لما ورد في سورتي البقرة وفصِّلت ومبيِّناً لما هو المراد من حرف العطف "ثم" وانَّهما استعملته لإفادة معنى العطف والتشريك محضاً.

الصريح من الآيات مفسِّرٌ لغير الصريح

ولو قيل: إنَّ قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ليست صريحةً أيضاً في البعدية الزمانية، قلنا لا مانع من القبول بذلك جدلاً، فإمَّا انْ يُدعى صراحةَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾ في التأخُّر الزماني أو يُدعى عدم صراحتها، فإنْ أُدعي صراحتها في التأخُّر الزماني كان ذلك مقتضياً للبناء على صلاحيتها لصرف الآية من سورة النازعات عن الظهور في البعدية الزمانية، فتكون النتيجة المتحصِّلة من ملاحظة مجموع الآيات حينئذٍ هي انَّ الأرض خُلقت قبل السماء ولا محذور عندنا في ذلك.

وبتعبير آخر: إنَّ الصريح من الآيات يكون مفسِّراً لغير الصريح، وبذلك ينتفي التناقض المتوهَّم بعد حمل غير الصريح على ما هو مناسب للصريح كما هو مقتضى القاعدة الأصولية، وهو مقتضى ما عليه العقلاء من أهل الكلام والمحاورة، فهم حين يتلقَّون خطابين من متكلِّمٍ واحد، أحدهما صريحٌ في معناه والآخر ظاهرٌ في معنىً منافٍ بدواً لما هو صريح الخطاب الأول ولكنَّه محتمِلٌ لمعنىً غير منافٍ للخطاب الأول الصريح فإنَّهم يستظهرون الإرادة الجدِّية للمعنى غير المنافي لصريح الخطاب الأول ويعتبرون الخطاب الأول الصريح مفسِّراً وشارحاً لما هو المراد الجدِّي من الخطاب الثاني.

تلك هي طريقة العقلاء في فهم النصوص

فهذه الطريقة في التعاطي مع الفرض المذكور هي المُعتمَدة عند فقهاء القانون في مقام المعالجة للنصوص القانونية، وهي الطريقة المُعتمَدة لدى القضاة اللذين ينظرون في مثل الوصايا والوثائق، وهي الطريقة المُعتمَدة عند شرّاح النصوص العلميَّة والأدبيَّة بل وحتى التأريخيَّة، فإنَّ كلٍّ هؤلاء يُفسرون النصَّ الذي يَحتمِل أكثر من معنى بالنصِّ الصريح في فرض اتَّحاد المتكلم.

فَفُقهاء القانون مثلاً عندما يرد عليهما نصَّان من قانونٍ واحد أحدهما صريحٌ في معناه والآخر يحتمل أكثر من معنى إلا انَّ الاحتمال الراجح بقطع النظر عن النص الآخر منافٍ لصريح النص الأول فإنَّهم في مثل هذا الفرض يستبعدون الاحتمال المنافي للنصِّ الصريح ويُفسِّرون النصَّ الثاني بما يتناسب أو لا يُنافي النصَّ الصريح، فيكون النصُّ الصريح بمثابة المفسِّر والشارح للنصِّ المحتمِل في نفسه لأكثر من معنى.

وعليه فسواءً قيل بأنَّ النصَّ الصريح من الآيات هو ما ورد في سورتي البقرة وفصِّلت أو انَّ الصريح هو ما ورد في سورة النَّازعات فإنَّ المعنى المتعيَّن من ملاحظة مجموع الآيات هو المعنى المناسب لما هو الصريح، ولا تصل النوبة للحكم بالتناقض بين الآيات. كذلك هي طريقةُ العقلاء في التعاطي مع النصوص.

وأما لو قيل بأنَّ الآية من سورة النَّازعات ليست صريحة في تأخُر خلق الأرض عن خلق السماء وإنَّما هي ظاهرةٌ في ذلك أي انَّ الراجح هو إفادتها لتأخُّر خلق الأرض عن خلق السماء، وكذلك فإنَّ الآية من سورتي البقرة وفصلت ليست صريحة في تأخُّر خلق السماء عن خلق الأرض وإنَّما هي ظاهرة في ذلك بمعنى انَّ الاحتمال الراجح هو إفادتها لتأخُّر خلق السماء عن خلق الأرض، فلو كان الأمر كذلك فإنَّه لا يصحُّ الحكم بالتناقض بين الآيات أيضاً، وذلك لأنَّه لا جزم بحسب هذا الفرض بما هو مراد المتكلم، ولا يصحُّ الحكم على أحدٍ بأنَّ كلامه يناقض بعضُه بعضاً والحال انَّه لا علم لنا بما هو مراده، فإنَّ الحكم على كلامين لمتكلمٍ بالتناقض إنَّما هو فرع العلم بما هو مراده من الكلامين الصادرين عنه، وأما إذا كان كلامه مجملاً ولو بالعرَض فإنَّ وسيلة الوقوف على مراده لا يتم إلا بالاستيضاح منه، فإنْ أمكن وإلا فالعقلاء يكون بناؤهم في مثل هذا الفرض هو التوقف وليس الحكم بالتناقض.

وبما ذكرناه يتَّضح الجواب عن السؤال الثاني، فإنَّه إذا بنينا على صراحة الآية من سورة النازعات في انَّ الأرض خُلقت بعد السماء فإنَّ ذلك مقتضياً لصراحتها أيضاً في انَّ الجبال خُلقت بعد خلق السماء، وأما الآية من سورة فصِّلت فظهورها في انَّ الجبال خُلقت قبل السماء فمبنيٌّ على استظهار التأخُّر الزماني من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ﴾

وقد اتَّضح انَّ إفادة التأخُّر الزماني غير متعيَّن من مفاد الآية المباركة، فهو وإنْ كان محتملاً إلا انَّ هذا الاحتمال لا بدَّ من طرحه بعد قيام القرينة على عدم إرادته، وهذه القرينة هي سورة النَّازعات الصريحة في تقدُّم خلق السماء على خلق الأرض والجبال.

ومع دعوى العكس وانَّ الآية من سورة فصِّلت هي الصريحة دون الآية من سورة النازعات ينسحب الكلام الذي تقدَّم بيانه، وكذلك ينسحب الكلام المتقدم لو قيل بعدم صراحة مجموع الآيات، فلاحظ.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الخامسة والثلاثون

خَلَقَ السماوات والأرض في أيام ستة أو ثمانية؟!

الشبهة الخامسة والثلاثون

خَلَقَ السماوات والأرض في أيام ستة أو ثمانية؟!

في سورة فصِّلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾[1] إلى أنْ قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى * إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[2] ألا يعني هذا أنَّ مجموع أيام خلق الأرض وحدها ستة، يومين في البدء وأربعة لتقدير الأقوات، فإذا أضفنا لها يومين لخلق السماوات، يغدو المجموع ثمانية أيام ...!

في حين ورد في عدّة مواضع أخرى من القرآن أنَّ أيام الخلق كانت ستة ولم تكن ثمانية.

١- سورة فصلت الآية/٩.

٢- سورة فصلت الآيات/١٠-١٢.

الجواب

نعم، هي ستةُ أيام:

إنَّ القرآن الكريم قد صرَّح في آياتٍ عديدة في سوَرٍ متفرِّقة انَّ الله تعالى قد خلق كلاً من السماوات والأرض في ستة أيام:

منها: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1].

ومنها: قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[2].

ومنها: قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3].

١- سورة الأعراف الآية/٥٤.

٢- سورة الفرقان الآية/٥٩.

٣- سورة السجدة الآية/٤.

ومنها: قوله تعالى في سورة ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[١].

ومنها: قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٢].

احترموا عقولكم!

فإذا كان القرآن قد صرَّح بذلك في كلِّ هذه السور وغيرها، والتي منها مانزل في مكة ومنها مانزل في المدينة بعد الهجرة فهل يحتمل عاقلٌ منصف انَّ الموحي للقرآن أو الصادع به قد نسي كلَّ هذه الآيات فأخبر على خلافها انَّ الله تعالى قد خلق السماوات والأرض في ثمانية أيام بعد انْ كان قد أخبر إنَّها ستة؟!! أو هل يحتمل عاقلٌ يحترم عقله انَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قد أخطأ في الحساب فجعل حاصلَ جمعِ اليومين والأربعة واليومين ستة بدلاً من الثمانية؟!!

إنَّ احتمال وقوع النسيان لهذا العدد الصغير والذي تمَّ تكرار ذكره في مواضع عديدة ومتفرِّقة على سور القرآن لا يصحُّ قبوله على أضعف

١- سورة ق الآية/٣٨.

٢- سورة الحديد الآية/٤.

الناس إدراكاً وحفظاً فكيف يصحُّ أنْ نقبله على من لا يختلف اثنان – حتى ممَّن لا يؤمن به– في انَّه كان من أكمل الناس عقلاً وأكثرهم تثبُّتاً.

على انَّ الآيات المصرِّحة بأنَّ الله تعالى قد خلقَ السماوات والأرض في ستة أيام مضافاً لكثرتها لم تكن سطوراً كُتبت في قرطاسٍ أو كتاب ثم تمَّ إهمالها حتى نحتمل في حقِّها النسيان من كاتبها أو ممَّن قرأها، إنَّ هذه الآيات كان يتلوها النبيﷺ ليلَ نهار في الصلوات اليوميَّة ويتلوها في خلواته ونوافله ويتلوها في محافل المسلمين ومجالس وعظه وإرشاده، وكان يأمر كتَّابه بتدوينها والمسلمين باستنساخها وتداولها ونقلها إلى كلِّ بقعةٍ أسلم أهلها، وكان يحضُّهم على حفظها والإكثار من تلاوتها ويعِدُهم على ذلك بالثواب الجزيل، فكانوا أحرص ما يكون على تلاوتها وحفظها، لذلك فدعوى نسيان النبيﷺ لهذا العدد لا يقبلها من يحترم عقله أو يخشى على نفسه السخرية.

هل أخطأ الأوّلون والآخرون في الحساب؟!

وكذلك هي دعوى احتمال وقوع الاشتباه فيما استنتجه من جمع الإثنين والأربعة والإثنين، فإنَّ أحداً لا يحتمل في حقِّ النبيِّﷺ وإنْ لم يكن يُؤمن بنبوّته انَّه أخطأ فتوهَّم انَّ نتيجة جمع هذه الأعداد هو الستة بدلاً من الثمانية، على انَّه لو تمَّ التسليم جدلاً بوقوع الخطأ فيما استنتجه من جمع هذا العدد فإنَّ أيسر شيءٍ هو التفطُّن بوقوع هذا الخطأ، فكيف

امتدَّتْ غفلة النبيِّ صلى الله عليه وآله ومعه المسلمون عن هذا الخطأ قرابةَ العقدين من الزمن من حين نزول سورة فُصِّلت في مكة وحتى رحيله إلى ربِّه، وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله في هذا الوقت المديد يتلو هذه الآية كما يتلو غيرها في محافل المسلمين وفي صلواتهم اليوميَّة ويحثُّ الناس على حفظها وتعاهد تلاوتها؟! ألم يكن فيهم من تفطَّن إلى انَّ حاصل جمع هذا العدد اليسير هو الثمانية فتكون هذه الآية منافية للآيات الكثيرة التي أفادت انَّ خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام؟!

إنَّ ذلك وحده كافٍ لإحراز انَّ مراد الآية من سورة فُصِّلت لم يكن هو الذي توهَّمه هذا المُثير للشبهة وإنَّ لها معنىً لا ينتهي إلى وقوع التنافي بينها وبين الآيات الكثيرة التي أفادت انَّ خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام.

بيان المراد من الآيات الشريفة:

فمعنى الآية من سورة فُصِّلت هو انَّ الله تعالى خلق الأرض وأنشأها في يومين أي على مرحلتين ثم إنَّه جعل فيها الجبال الراسيات وأهَّلها للسكنى وقدَّر فيها أقواتها في أمدٍ يتمُّ به مع اليومين الأولين أربعةُ أيام أي كان خلقُ الأرض في يومين، وكان تقدير الأقوات فيها وتأهيلها في يومين آخرين يكون بهما المجموع أربعة أيام، فمعنى قوله تعالى:

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾[1] هو انّها أربعة مع اليومين الأولين اللذين كان فيهما خلق الأرض فبمجموعهما صار عدد الأيام أربعة، وليس المراد من ذلك انَّ تأهيلها وتقدير الأقوات استغرق وحده أربعة أيام حتى يكون مجموع ما استغرقه خلق الأرض وتقدير الأقوات ستة أيام.

أمثلةٌ توضيحيَّة:

وهذا الأسلوب متعارفٌ في الكلام العربي في مثل حساب الأوقات والمسافات والأوزان.

أ- مثالٌ على حساب المسافة:

فيُقال مثلا: المسير من العراق إلى مكة المكرمة عشرة أيام، والمسير إلى المدينة المنورة خمسة عشر يوماً، ومعنى ذلك انَّ مجموع ما يستغرقه المسير من العراق إلى المدينة هو خمسة عشر يوماً، وليس معنى ذلك انَّ ما بين العراق ومكة عشرةَ أيام وما بين مكة والمدينة خمسة عشر يوماً فيكون المجموع ما بين العراق والمدينة خمس وعشرين يوماً، فإنَّ ذلك غيرُ مرادٍ جزماً.

١- سورة فصلت الآية/١٠.

مثالٌ على حساب الزمن:

ويُقال أيضاً في حساب الأوقات: الوقت ما بين طلوع الشمس إلى الضحى ساعتان وإلى زوال الشمس ستُ ساعات، ومعنى ذلك انَّ مجموع ما بين الطلوع إلى الزوال ستُ ساعات، وليس معناه انَّ ما بين الضحى إلى الزوال ستُ ساعات حتى يكون ما بين الطلوع إلى الزوال ثمان ساعات.

مثالٌ على حساب الكيل:

ويقال أيضا: حاصل الحصاد للسنة الأولى خمسون مكيالاً وللسنة الثانية مائة مكيال، فإنَّ معنى ذلك انَّ مجموع الحصاد لمجموع السنتين مائة مكيال، وليس معناه انَّ حصاد السنة الثانية وحدها مائة حتى يكون مجموع الحصاد لمجموع السنتين مائة وخمسين مكيالاً.

النتيجة:

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[1] هو إنَّ جعل الرواسي وتأهيل الأرض وتقدير الأقوات كان في وقتٍ يتمُّ به مع اليومين -اللذين خُلقت فيهما الأرض- أربعةُ أيام، فيكون مقتضى

١- سورة فصلت الآية/١٠.

ذلك هو انَّ الوقت الذي استغرقه إرساء الجبال وتأهيل الأرض وتقدير الأقوات يومان، ويومان لخلق الأرض فهذه أربعة أيام سواء وتامة، فإذا أُضيف إليها يومان لخلق السماوات -كما قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[1]- كان المجموع ستة أيام وليس ثمانية أيام كما توهَّم ذلك مثير الشبهة، وعلى ذلك تكون هذه الآية من سورة فُصِّلت مطابقةً تماماً للآيات الكثيرة التي أفادت انَّ خلق السماوات والأرض وما بينهما كان في ستة أيام.

والحمد لله رب العالمين

١- سورة فصلت الآية/١٢.

الشبهة السادسة والثلاثون

من طينٍ لازب أو حمإٍ مسنون؟

الشبهة السادسة والثلاثون

من طينٍ لازب أو حمأٍ مسنون؟

ورد في جملة آياتٍ من القران أنَّ الله خلق الإنسان من تراب كالذي ورد في سورة فاطر: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[1] وكذلك في سورة الروم و الحج و الكهف..!! وورد في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[2] وفي سورة الصَّافات: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[3]، أما في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[4] طيب ... تراب، أم طين لازب أم حمأ مسنون أم ماذا بالضبط...؟؟

١- سورة فاطر الآية/١١.

٢- سورة الحجر الآية/٢٦.

٣- سورة الصافات الآية/١١.

٤- سورة الرحمن الآية/١٤.

الجواب

مبدأ خلق الإنسان الأول:

ليس بين الآيات المذكورة تنافٍ أصلاً، فهي جميعاً متصديَّة لبيان مبدأ خلق الإنسان الأول المتمثِّل في آدمعليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾[2]

فالإنسان الأول تكوَّن من هذه المادة وبعدئذٍ تكاثر بواسطة التناسل، وهذا هو معنى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ والماء المهين هي نطفةُ الرجل التي تنعقد في رحم المرأة فيتخلَّق منها الإنسان عبْرَ مراحل محدَّدة ومُتْقنة، فكلُّ إنسانٍ ذكرٍ أو أُنثى فإنَّه خُلق من ذلك إلا آدمعليه السلام وهو الإنسان الأول وكذلك حواء فإنَّهما خُلقا ابتداءً من غير

١- سورة ص الآيتان/٧١-٧٢.

٢- سورة السجدة الآيتان/٧-٨.

تناسل، وكانت المادة التي خُلقا منها هي التراب الممتزج بالماء حتى تطيَّن وتلاصقت أجزاؤه، وظلَّ كذلك حتى تغيَّر لونُه وصار مُنتناً، وهو معنى الحمأ المسنون، ثم أُبدعت منه صورة الإنسان، وظلَّ كذلك حتى جفَّ عنه الماء فصار يابساً صلصالاً أي لحركته صوت، وعندئذٍ صيَّره اللهُ تعالى بقدرته إنساناً سويًّا.

فالآيات المذكورة متصديَّة لبيان المراحل التي ترتَّب عنها خلقُ الإنسان الأول، فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ بيانٌ للمرحلة الأولى من خلق الإنسان الأول، وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[1] فهو بيانٌ للمرحلة الثانية التي تمَّ فيها مزج التراب بالماء حتى تطيَّن، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾[2] فهو بيانٌ للصفة التي صار إليها الطين بعد مكثه برهةً من الزمن، فمعنى اللازب هو اللاصق، ومن الواضح انَّ التراب بعد مزجه بالماء لا يصير كذلك ابتداءً بل يحتاج إلى زمنٍ قصيرٍ أو طويل حتى يُصبح متماسكاً، ثم إذا مكث الطين برهةً من الوقت تغيَّر لونُه وصار الماء الممتزج به آسناً مُنتناً فيصير

١- سورة الأنعام الآية/٢.

٢- سورة الصافات الآية/١١.

الطين رخواً قابلاً للانصباب والتشكُل، وهذا هو معنى الحمأ المسنون في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[١].

وبعد أنّ أصبح الطين على هذه الصفة فصار قابلاً للتشكُل عندئذٍ أبدع اللهُ تعالى صورةَ الإنسان من ذلك الطين فصار على هيئة التمثال، وبعد أنْ جفَّت رطوبتُه صار كالفخّار الذي لحركته صلصلةٌ وصوت، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[٢] أي بعد أنّ بلغ الطين مرحلة القابليَّة للتشكُل تمَّ تصوير الإنسان وتشكيله منه، وبعدئذٍ صار صلصالاً أي طيناً يابساً لو حرّكته لكان لحركته صوتٌ وصلصلة عيناً كما هو صوتُ الفخّار عند تحريكه ونقره أو احتكاكه بجسمٍ آخر.

وأفاد القرآن في آيةٍ أخرى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي انّ هذا الصلصال وهو الطين اليابس كان قد تشكَّل عن الحمأ المسنون، وهو الطين المتغيِّر اللون الذي بلغ مرحلة القابليَّة للانصباب والتشكُل.

١- سورة الحجر الآية/٢٦.

٢- سورة الرحمن الآية/١٤.

أين هو التنافي ؟!

فأين هو التنافي بين هذه الآيات، فهل قال القرآن إنَّ الله خلق الإنسان من التراب ثم قال إنَّه خلقه من معدن الحديد أو النحاس مثلاً؟!! أم قال إنَّه خلقه من ترابٍ ثم قال إنَّه خلقه من طين، أليس الطين هو ذاته التراب بعد مزجه بالماء، وهل إنَّ الطين اللازب المُتماسك شيءٌ آخر غير الطين والتراب؟! وهل إنَّ صيرورة هذا الطين حمأً مسنوناً قابلاً للتشكُّل يُخرجه عن حقيقة أنَّه ترابٌ وطين؟! وهل بعد أنْ يجفَّ فيُصبح صلصالاً كالفخار يخرج عن حقيقة أنَّه ترابٌ صار طيناً ثم جفَّ فصار فخاراً؟! مالكم كيف تحكمون؟!!

لمَ الإشارة لتلك المراحل ؟

وأما لماذا يُشير القرآن تارةً للمرحلة الأولى من خلق الإنسان الأول، وهي التراب، وتارةً للمرحلة الثانية وهي الطين، وأخرى للمرحلة الثالثة وهي الطين اللازب، ثم إلى المرحلة الرابعة وهي الحمأ المسنون، ثم إلى المرحلة الخامسة وهي الصَّلصال فذلك لأنَّ القرآن ليس كتاباً في علم الأحياء، وهو إنَّما يُشير إلى مبدأ خلق الإنسان لغرض التعريف بواقعه أو لغرض وعظه وتذكيره بأنَّه إنَّما خُلق من مادةٍ لم تكن أشرف المواد والعناصر ولا هي أقواها، فلا معنى للاستكبار والتمرُّد، وهذا المقدار من

الغرض يكفي لتحقيقه الإشارة إلى ما بيَّنه القرآن في مبدأ خلق الإنسان الأول.

عدم التصدّي لبيان الترتيب بين المراحل:

وأما عدم تصدِّيه لبيان تسلسُل هذه المراحل فلأنَّها من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى بيان، فإذا قال القرآن إنَّ الإنسان خُلق من تراب وقال في موردٍ آخر إنَّه خُلق من طين وإنَّه خُلق من صلصال فإنَّ مقتضى طبع هذه العناوين انْ يكون التراب أولاً والطِّين ثانياً والصلصال الذي هو الطين اليابس ثالثاً، فوضوح الترتُّب بين هذه العناوين أغنى عن التصدي لبيان تسلسلها.

وهذا بخلاف المراحل التي يمرُّ بها خلق الإنسان المنحدر عن السلالة فإنَّها ليست واضحة نظراً لصيرورتها كذلك في الأرحام، فلهذا تصدَّت آياتٌ عديدة لتبيان الترتُّب بين هذه المراحل بما يُناسب غرض القرآن وأنَّه كتابُ هداية ولم يكن كتاباً لعلم الأحياء أو غيره من العلوم البشرية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1].

ثم إنَّ الإشارة تارةً إلى المرحلة الأولى من خلق الإنسان الأول وهي التراب، وتارةً يُشير إلى المرحلة الثانية وهي الطين، وأخرى يُشير إلى الحمأ المسنون وهكذا فذلك ليس من التناقض في شيء بعد انّ كان ذلك هو حقيقةُ ما كان عليه مبدأ خلق الإنسان.

هذا الأسلوب متعارفٌ عند أهل الكلام والمحاورة:

والتنويه بشيءٍ من هذا الواقع وإغفال غيره ثم ذكره في موضعٍ آخر مترتِّباً أو غير مترتِّب أو حتى عدم ذكره أصلاً لا يعدُّ من التناقض، فإنَّ هذا الأسلوب متعارفٌ عند أهل الكلام والمحاورة، فهم يقتبسون شيئاً من الحقائق -بحسب ما تقتضيه الحاجة والغرض- ويستشهدون بها ثم يقتبسون حقيقةً أُخرى من الحقائق متَّصلة بالحقيقة الأولى ويستشهدون بها في موضعٍ آخر فلا يكون الاقتباس الأول منافياً للاقتباس الثاني، كما انَّه ليس في عدم ترتيب هذه الحقائق أو عدم ذكرها في عرضٍ واحد انتقاصٌ للحقيقة بعد انّ لم يكونوا بصدد التعليم والشرح لذلك العلم الذي اقتبست منه تلك الحقاق المتفرِّقة.

١- سورة المؤمنون الآيات/١٢-١٤.

أمثلة توضيحيَّة:

وكمثالٍ واضحٍ على ذلك ما يُقال: إنَّ الإنسان مكوَّنٌ من دمٍ وعصب، ويُقال في موردٍ آخر إنَّ الإنسان مكوَّن من لحمٍ وعظم، ويُقال في موردٍ ثالث: إنَّ الإنسان أكثر ما يتكوَّن منه هي السوائل.

وكذلك ما يُقال في مبدأ خلق النبات فإنَّه تارةً يُقال: إنَّ مبدأ خلق النبات ماءٌ وتراب، ويُقال في موردٍ آخر انَّ مبدأ خلق النبات بذورٌ وسماد، ويُقال في موردٍ ثالث انَّ مبدأ خلق النبات حرثٌ وغرسٌ ومطر، وليس بين هذه الفقرات تناقض، فمجموع ما اشتملت عليه هذه الفقرات هو مبدأ خلق النبات حقيقةً، وأما إغفال ذكر العناصر التفصيليَّة التي هي مبدأ خلق النبات فمنشأه انَّ المتكلم بهذه الفقرات لم يكن بصدد التعليم والشرح العلمي لمبدأ خلق النبات فإنَّ ذلك خارج عن مورد غرضه، فالمناسب في مثل هذه المقامات هو البيان الإجمالي دون التفصيلي.

وأما عدم الترتيب بين هذه الحقائق فلأنَّ كلاً واحدةٍ من هذه الحقائق إنَّما تُذكر لغرض الاستشهاد بها على معنىً من المعاني يريد المتكلِّم إيصاله إلى المتلقِّي، فهو إنَّما يستشهد بالحقيقة المناسبة لذلك المعنى الذي يُراد إيصاله إلى ذهن المتلقِّي، فالترتيب ليس متعلّقاً لغرضه، ومتى ما توقَّف بيان المعنى الذي يُراد إيصاله على الترتيب فإنَّ عليه في مثل هذا الفرض أنَّ يرتِّب بين الحقائق وإلا فلا موجب لذلك بل إنَّ الترتيب

أو التفصيل في بعض المساقات الكلامية قد يكون مخلاًّ بالغرض ومُنتجاً إما للتشويش على الغرض وتعويمه أو منتجاً لتضجُّر المتلقِّي وتبرُّمه.

الخلاصة:

والمتحصَّل مما ذكرناه إنَّ الآيات المشتملة على بيان مبدأ خلق الإنسان الأول ليس فيما بين بعضها والبعض الآخر تنافٍ وتناقض بل إنَّ بينها تمامَ الملائمة، غايته إنَّ منها ما اشتمل على الإشارة للمرحلة الأولى، ومنها ما اشتمل على الإشارة لمرحلةٍ أخرى، وليس ذلك من التنافي والتناقض في شيئ، فمبدأ خلق الإنسان كان من تراب وكان من طين وكان من حمإٍ مسنون وكان من صلصال.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة السابعة والثلاثون

نُبذ بالعراء أو لم يُنبذ؟!

الشبهة السابعة والثلاثون

نُبذ بالعراء أو لم يُنبذ؟!

في سورة الصافات قال الله حكايةً عن يونس: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[1] والحال انه الله قال عنه في سورة القلم: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[2] ولولا حرف امتناع لوجود أي امتناع النبذ بالعراء لوجود التدارك، ومعنى ذلك انَّه لم يُنبذ، أليس في ذلك تناقض، حيثُ حكت إحدى الآيتين أنَّه نُبذ بالعراء والأُخرى نفت أنَّه قد نُبذ بالعراء؟

١- سورة الصافات الآية/١٤٥.

٢- سورة القلم الآية/٤٩.

الجواب

الآية إنَّما نَفَت الحال وليس الفعل:

ليس في الآيتين تناقض أصلاً كما هو ظاهرٌ جداً لمَن كان له أدنى فهمٍ بتصاريف الكلام العربي.

فالآية من سورة الصافات تُثبت انَّ يونس عليه السلام كان قد نُبذ بالعراء وهو سقيم، وأما الآية من سورة القلم فهي تنفي انَّه نُبذ بالعراء وهو مذموم، فليس المراد منها أنَّه لم ينبذ بالعراء وإنَّما المراد أنَّه لم يكن مذموماً حين نُبذ بالعراء، فهي تنفي الذم عنه لتدارك الرحمة الإلهيَّة له ولا تنفي النبذ كما هو ظاهرٌ جداً من الآية المباركة.

فهي بتعبيرٍ آخر تنفي الحال أعني أنَّه مذموم، لأنَّ الواو في قوله: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ حاليَّة، ولا تنفي الفعل وهو النبذ بالعراء. فلولا وإنْ كانت حرف امتناع لوجود ولكنَّه امتناع الذم لوجود التدارك.

فمعنى قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ انَّه لولا انَّ الله تعالى قد أنعم على يونس بأنْ تجاوز عمَّا كان قد

فعل من تركه لقومه وركوبه البحر لكان حين نُبذ بالعراء مذموماً إلا انَّه وحيث انَّ الله تعالى قد أنعم عليه وتجاوز عنه لتسبيحه في بطن الحوت قد نُبذ بالعراء دون أن يكون مذموماً، فهي تنفي عنه الذم ولا تنفي وقوع النبذ حتى تكون الآية منافية لما جاء في سورة الصافات.

مثالٌ توضيحي:

فمساق الآية من سورة القلم هو مساق قولنا: "لولا أنْ وهبتُ زيداً دابةً لذهب إلى السوق ماشياً" فإنَّ هذه الجملة لا تنفي عن زيدٍ الذهاب إلى السوق وإنَّما تنفي ذهابه إليها مشياً، فهي تنفي المشي إلى السوق ولا تنفي أصل الذهاب إلى السوق، وكذلك الآية فإنَّها تنفي الذم عن يونس عليه السلام ولا تنفي نبذه بالعراء فأين التناقض بين الآيتين؟!

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الثامنة والثلاثون

الاختلاف فيما أهلكَ قومَ عادٍ وثمود

الشبهة الثامنة والثلاثون

الاختلاف فيما أهلكَ قومَ عادٍ وثمود

يقول القرآن في سورة الحاقَّة عن قوم ثمود: إنَّ الله أهلكهم بالطاغية ثم يقول في سورة فصِّلت إنَّ ثمود أخذتهم صاعقة العذاب، ثم يؤكِّد في نفس السورة انَّ ثمود هلكوا بصاعقة مثل قوم عاد، فهل هلك قوم ثمود بالطاغية أم بالصاعقة؟! وهل هلك قوم عاد بالصاعقة أم بالرياح الشديدة كما في سورة الذَّاريات والحاقَّة؟! وهل هلك قوم عادٍ وقوم ثمود بنفس الطريقة أم بطريقتين مختلفتين؟!

الجواب

أوصاف عذاب ثمود:

١- الرَّجفة:

وصف القرآن الكريم طبيعة العذاب الذي وقع على قوم ثمود بعددٍ من النعوت، ففي سورة الأعراف وصف ما أصابهم بالرجفة فقال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[1].

٢- الصَّيحة:

وفي سورة هود وصف العذاب الذي وقع عليهم بالصيحة فقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[2] وكذلك

١- سورة الأعراف الآيتان/٧٧-٧٨.

٢- سورة هود الآيتان/٦٧-٦٨.

استعمل القرآن ذات الوصف في سورة القمر قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾[١] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[٢].

٣- الصّاعقة:

وفي سورة الذّاريات وصف القرآن العذاب الذي أخذ قوم ثمود بالصّاعقة، قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[٣]، وكذلك استعمل ذات الوصف في سورة فُصِّلت، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤].

١- سورة القمر الآية/٢٣.

٢- سورة القمر الآية/٣١.

٣- سورة الذاريات الآيتان/٤٣-٤٤.

٤- سورة فصلت الآية/١٧.

٤- الطّاغية:

وأما في سورة الحاقّة فعبَّر القرآن الكريم عن العذاب الذي أهلك قوم ثمود بالطاغية، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[١].

قصّة عذاب ثمود:

فهذه عناوين أربعة وصف القرانُ بها العذاب الذي أصاب قومَ ثمود، وليس بين هذه العناوين تنافٍ أصلاً إلا انَّه وقبل بيان ماهو مفاد هذه العناوين نذكر بنحو الإيجاز طبيعة العذاب الذي أصاب قوم ثمود بعد أنْ عتوا عن أمر ربِّهم وعقروا الناقة التي وصفها القرآن بأنَّها كانت آيةً مُبصِرةً وحجةً دامغةً على صدق نبيِّهم صالح عليه السلام، وكان قد حذَّرهم أنْ يمسُّوها بسوء فقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢] لكنَّهم لم يعبئوا بتحذيره.

فعقروا الناقةَ وحينئذٍ جاءهم الوعيد من عند الله تعالى على لسان نبيِّهم صالح عليه السلام: أنْ تأهبوا للعذاب بعد ثلاثة أيام، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا

١- سورة الحاقة الآيات/٤-٦.

٢- سورة الشعراء الآية/١٥٦.

فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[١]، وقد ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام انَّ صالحاً عليه السلام أنبأهم انَّ أمارة صدق هذا الوعيد: "...إِنَّكُمْ تُصْبِحُونَ غَداً ووُجُوهُكُمْ مُصْفَرَّةٌ والْيَوْمَ الثَّانِيَ وُجُوهُكُمْ مُحْمَرَّةٌ والْيَوْمَ الثَّالِثَ وُجُوهُكُمْ مُسْوَدَّةٌ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ أَصْبَحُوا ووُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ فَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ وقَالُوا قَدْ جَاءَكُمْ مَا قَالَ لَكُمْ صَالِحٌ فَقَالَ الْعُتَاةُ مِنْهُمْ: لَا نَسْمَعُ قَوْلَ صَالِحٍ ولَا نَقْبَلُ قَوْلَه وإِنْ كَانَ عَظِيماً فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي أَصْبَحَتْ وُجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةً فَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ فَقَالُوا يَا قَوْمِ قَدْ جَاءَكُمْ مَا قَالَ لَكُمْ صَالِحٌ فَقَالَ الْعُتَاةُ مِنْهُمْ لَوْ أُهْلِكْنَا جَمِيعاً مَا سَمِعْنَا قَوْلَ صَالِحٍ ولَا تَرَكْنَا آلِهَتَنَا الَّتِي كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَهَا، ولَمْ يَتُوبُوا ولَمْ يَرْجِعُوا، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ أَصْبَحُوا ووُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ فَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ وقَالُوا: يَا قَوْمِ أَتَاكُمْ مَا قَالَ لَكُمْ صَالِحٌ فَقَالَ الْعُتَاةُ مِنْهُمْ: قَدْ أَتَانَا مَا قَالَ لَنَا صَالِحٌ.."[٢].

ثم حين استوفت الأيامُ الثلاثة أمدها أنجز الله تعالى ما كان قد توعَّدهم به من العذاب، فبعث عليهم صيحةً مُنكَرة انخرقت من هولها أسماعهم وارتجَّت لشدَّتها الأرض من تحتهم وارتجفت من عظيم صداها قلوبُهم رعباً فما لبثوا حتى سلَّط الله تعالى عليهم صاعقةً من

١- سورة هود الآية/٦٥.

٢- الكافي -الشيخ الكليني- ج٨ ص١٨٨.

السماء وهم ينظرون فأحرقتهم عن آخرهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾[١] ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

تفسير عناوين العذاب الأربعة:

وباتّضاح ما كان قد وقع على قوم ثمود من عقوبة يتّضح انّ العناوين الأربعة التي وصَّف بها القرآن ما أصابهم كانت منطبقة تماماً على طبيعة العذاب الذي نزل بساحتهم.

أما العنوان الأول: وهو الرجفة فهي إمَّا بمعنى ارتجاف الأرض وتزلزلها أو هي بمعنى ارتجاف قلوبهم رعباً والمستَلزِم غالباً لارتجاف الأبدان واضطرابها، ويكفي لصحة توصيف ما وقع لهم بالرجفة أنْ يكون أحد الأمرين قد وقع لهم، ثم انَّه لا محذور في انْ يُخبِر القرآن عن قوم ثمود انَّهم قد عُذِّبوا بالصيحة وبالصاعقة وفي ذات الوقت يُخبِر عن انَّهم قد عُذِّبوا بالرجفة فإنّ اجتماع مثل هذه الأنواع من العذاب ليس متعذِّراً بل ولا مستبعداً بل إنَّ الرجفة -لو كانت بمعنى ارتجاف قلوبهم واضطراب أبدانهم رعباً- تكون ملازِمة لمثل التعذيب بالصيحة، فإنَّ

١- سورة الذاريات الآية/٤٤-٤٥.

٢- سورة النمل الآية/٥٢.

الغرض الأظهر لإحداث الصيحة المنكَرة هو بثٌّ الرعب المستلزِم لارتجاف القلوب والأبدان.

وكذلك فإنَّ الرجفة بمعنى الزلزلة أو الاهتزاز الأرضي لا يمتنع وقوعها في ظرف وقوع مثل الصاعقة أو الصيحة، فإنَّ كلٍّ ذلك ظواهر كونيَّة كثيراً ما يتَّفق اجتماع عددٍ منها في آنٍ واحد خصوصاً وانَّ وقوع هذه الظواهر مجتمِعة لم ينشأ عن أسباب طبيعيَّة بل نشأ عن أمرٍ إلهي خارجٍ عن سياق القانون الطبيعي الذي أودعه اللهُ تعالى في الكون.

وأما العنوان الثاني: وهو الصيحة فقد اتَّضح انَّ المراد منها هو الصوت المهول الذي عادةً ما يبعث على الفزع والرعب، وغالباً ما يكون منشأ الفزع الناتج عن الصوت المهول هو ترقُّب أمرٍ مجهول بعد صدور الصوت، وذلك يتَّفق حينما يكون مصدر الصوت مجهولاً أو يكون أثره مجهولاً، وإذا اتَّفق الجهل بمصدر الصوت وبأثره فإنَّ الفزع الناتج عنه يكون مضاعفاً، ويتضاعف أكثر حينما يكون صدور الصوت مباغِتاً.

وكلٌّ ذلك قد وقع لقوم ثمود، فهم وإنْ كانوا ينتظرون العذاب أو يتوقَّعونه بعد انقضاء أمد المهلة لكنَّهم لم يكونوا على علمٍ بطبيعته، لذلك كانت الصيحة مباغِتةً لهم، وكانوا في ذات الوقت لا يعلمون من أين صدرت، لذلك فهم يترقَّبون ما بعدها، وحيثُ انَّ مصدر الصوت كان مجهولاً فإنَّ أثره وما سيترتَّب عليه يكون مجهولاً أيضاً، لذلك أخذ

الفزع منهم مأخذاً عظيماً تخشّبت لشدّته أقدامهم ومفاصلهم فظلّوا حيارى جاثمين على رُكَبِهم حتى نزلت عليهم نارٌ من السماء فأحرقتهم وهم ينظرون دون أنْ يقوى منهم أحدٌ على دفعها أو الفرار منها أو اللجوء إلى مأمن يحميه من لهبها.

وبذلك يتّضح انّ من المحتمل اتّحاد المراد من عنوان الرجفة الوارد في سورة الأعراف مع عنوان الصيحة الوارد في سورتي هود والقمر، فيكون العذاب الذي أصاب قوم ثمود بناءً على ذلك هو الصيحة، غايته انّ القرآن عبَّر عنها في سورة الأعراف بالرجفة، لأنّ الرجفة -التي هي اضطراب القلب ورِعدة البدن- هي الأثر الأظهر للصّيحة، فيكون إطلاق عنوان الرجفة على الصيحة من باب إطلاق المسبَّب وإرادة السبب.

عيناً كما يُطلق عنوان النهار ويُراد منه الشمس، فيُقال: أشرق النهار والحال انّ الذي أشرقت هي الشمس إلا انّه لمّا كان النهار هو الأثرُ الأظهر لشروق الشمس صحَّح ذلك استعمال النهار وإرادة الشمس، فيكون إطلاق عنوان النهار على الشمس من باب إطلاق المسبَّب وإرادة السبب.

وكذلك حينما يُقال: هبَط الرزقُ في هذا العام وافراً، فإنّ الرزق لا يهبط من السماء وإنّ الذي يهبط من السماء هو المطر، فيكون المراد من الرزق هو المطر، والمصحِّح لاستعمال الرزق وإرادة المطر هو انّ المطر

سببٌ للرزق، والرزق مسبَّبٌ عن المطر، فاستعمال الرزق وإرادة المطر من استعمال المسبَّب وإرادة السبب.

وهكذا هو استعمال الرجفة وإرادة الصيحة، فإنَّ الرجفة -بناءً على انَّها بمعنى الفزع والرِعدة- لمَّا كانت مسبَّبةً عن الصيحة لذلك صحَّ استعمال الرجفة وإرادة سببها وهي الصيحة، ويكون ذلك من استعمال المسبَّب وإرادة السبب.

وعلى أيٍّ حال فسواءً كان المراد من الرجفة هي الصيحة أو كان كلٌّ منهما عقوبةً مستقلَّة وقعت على قوم ثمود فإنَّه لا محذور في ذلك، فلا محذور في انْ تكون العقوبة متَّحدة وعُبِّر عنها بعنوانين أو تكون العقوبة متعدِّدة فأخبر القرآن عن إحداهما في مورد وأخبر عن الأُخرى في موردٍ آخر.

وأما العنوان الثالث: وهو الصاعقة فهو يرد لعدة معانٍ أهمها ثلاثة:

المعنى الأول: انَّ الصاعقة هي النار التي تنقدح من اصطكاك السحاب مصحوبةً بصوت الرعد الشديد، ويُعرِّفها بعضُ اللغويين بالنار التي تسقط من السماء في رعدٍ شديد أو هي قطعةٌ من نارٍ يتطاير لهبُها من ثنايا السحاب وتكون هذه النار خاطفة سريعة الحركة تُحرق من وقعت عليه، وهذا المعنى للصاعقة هو المناسب لمثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۞ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ

بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[1].

المعنى الثاني: انَّ الصاعقة هي صوت العذاب، وعبَّر عنها بعض اللغويِّين بصيحة العذاب، فمطلقُ الصوت الشديد الذي يُترقَّب ما وراءه يكون صاعقةً وإنْ لم يكن مصحوباً بالنار.

المعنى الثالث: انَّ الصَّاعقة هي مطلق العذاب الذي من شأنه أنْ يهلك من أصابه، وأفاد بعضهم انَّ الصاعقة تُستعمل في كلٍّ أمرٍ مهول لا يجد الإنسان منه مهرباً ولا يجد له منه دافعاً، ويُسمي المغشي عليه من هول ما وجد صَعِقاً أو مصعوقاً كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[2] وكذلك يُعبَّر عن الميِّت الذي نشأ موته عن الخوف من هول ما شاهد أو سمع انَّه صَعِقٌ أو مصعوق ولعلَّ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[3].

فلو كان المراد من الصاعقة الواردة في سورتي الذَّاريات وفُصِّلت هو المعنى الأول فإنَّ مقتضى ذلك هو احتمال تعدُّد العقوبة التي وقعت على

١- سورة الرعد الآيتان/١٢-١٣.

٢- سورة الأعراف الآية/١٤٣.

٣- سورة الزمر الآية/٦٨.

قوم ثمود، وذلك بناءً على إنَّ المراد من عنوان الصيحة الوارد في سورتي هود والقمر هو الصوت المهول الذي لا يُعلم مصدره، إذ لو كان مصدره صوت الرعد لكان معلوماً غالباً، ولا ضير في الالتزام بذلك، إذ لا محذور كما تقدم في أنْ يُعذِّب الله تعالى قوماً بأنواعٍ متعدِّدة من العذاب في آنٍ واحد، لذلك لو تمَّ البناء على انَّ المراد من الرجفة هي الزلزلة أو الاهتزاز الأرضي، وانَّ المراد من الصيحة هي الصوت المهول المنبعث من مصدرٍ مجهول، وانَّ المراد من الصاعقة هي النار المصحوبة بصوت الرعد فإنَّ ذلك غير ضائر، وإنَّ غايته الالتزام بتعدُّد العقوبة التي وقعت على قوم ثمود.

ورغم ذلك فإنَّ احتمال اتِّحاد عنواني الصَّيحة والصَّاعقة بناءً على المعنى الأول يظلُّ قائماً، ذلك لأنَّ الصيحة تعني الصوت المهول بقطع النظر عن مصدره وانَّه مجهول أو معلوم، نعم المتبادر من عنوان الصيحة المستعمل في سياق الإخبار عن العذاب الإلهي هو انَّ موقع صدورها هو السماء وانَّ صدورها لا يكون وفق ما يقتضيه القانون الطبيعي لكنَّ ذلك لا يمنع من اتِّحادها مع عنوان الصاعقة التي يكون صوتها هو صوت الرعد، وذلك بأنْ يُلتزم بأن صوت الرعد الذي أدهش قوم ثمود كان غايةً في الشدة بحيثُ لم يكن هو الصوت المعهود للرعد مما يُعبِّر عن انَّه كان خارجاً عن سياق القانون الطبيعي، فذلك ما صحَّح التعبير عنه

بالصيحة ولكن دون انْ يخرج عن عنوان الصاعقة التي هي صوت الرعد المصحوب بسقوط قطعٍ نارية من ثنايا السحاب.

وعلى كلٍّ تقدير فإنَّ الالتزام بأيٍّ من الاحتمالين لا يترتَّب عليه محذور، لذلك لا نجد حاجةً للبحث عمَّا يرجِّح أحد الاحتمالين.

ولو كان المراد من عنوان الصاعقة الوارد في سورتي الذاريات وفصِّلت هو المعنى الثاني أي انَّها مطلق صوت العذاب أو هي بحسب تعبير بعض اللغويين صيحة العذاب فإنَّ المتعيّن هو البناء على اتِّحاد المراد من عنواني الصاعقة والصيحة، بمعنى انَّ القرآن أراد من عنوان الصاعقة في سورتي الذاريات وفصِّلت ما أراده من عنوان الصَّيحة في سورتي هود والقمر فهو في كلا الموردين يخبر عن ان العذاب الذي أصاب قوم ثمود هو انَّه بعث عليهم صوتا مهولاً منكراً أفزعهم فكان في ذلك هلاكهم لكنَّه عبر عن هذا العذاب تارة بالصيحة وأخرى بالصاعقة، نعم تعيُّن هذا المعنى لا ينفي وقوع عذابٍ آخر عليهم، فلا ضير في انْ يُلتزم حتى بناءً على هذا المعنى بإصابتهم بنارٍ حين أو بعد هلاكهم كما ورد في بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ليكون ذلك أبلغ في الموعظة لمن يصله خبرهم.

ولو كان المراد من عنوان الصَّاعقة هو المعنى الثالث وهو انَّه مطلق العذاب بقطع النظر عن طبيعته ونوعه، فكلُّ عذاب من شأنه انْ يُهلك من

أصابه فهو صاعقة، فإنَّه لو كان هذا المعنى هو المراد من عنوان الصاعقة الوارد في سورتي الذاريات وفصِّلت فإنَّ مقتضاه هو البناء على انَّ مفاد الآية هو انَّ عذاباً مهلكاً أصاب قوم ثمود دون انْ يكون لها غرض في بيان طبيعته، فيكون ما ورد في سورتي هود والقمر مفسراً لما أجملته الآيتان من سورتي الذاريات وفصِّلت، وبذلك يتعيَّن انَّ ما وقع لقوم ثمود هو الصيحة، غايته انَّ القرآن أخبر عن وقوعها على قوم ثمود صراحة في موردين وأخبر عنها في موردين آخرين بعنوان قابل للصدق عليها.

فلو كنَّا والآيتان من سورتي الذاريات وفصِّلت لقلنا بأنَّ عذاباً مهلكاً وقع على قوم ثمود لكننا لا نعلم بطبيعته إلا انَّه بعد ملاحظة ما ورد في سورتي هود والقمر علمنا انَّ ذلك العذاب المشار إليه في سورتي الذاريات وفصِّلت هو الصيحة.

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّه لا ضير في الإلتزام بإتِّحاد نوع العقوبة الواقعة على قوم ثمود وانَّ العناوين الثلاثة كانت تُشير إلى مُعنْوَنٍ واحد، كما لا ضير في الالتزام بتعدُّد العقوبة وانَّ كلَّ عنوان من العناوين الواردة في القرآن يؤشِّر إلى نوعٍ مستقلٍّ من العذاب كان قد وقع على قوم ثمود

ولأنَّ الالتزام بأيٍّ من الاحتمالين خالٍ من أيِّ محذور لذلك لا نجد حاجةً للبحث عمَّا هو الأرجح منهما.

وأما العنوان الرابع: الوارد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[1] فهو بمعنى الواقعة المجاوزة للحدّ في الشدّة، فكلُّ شيءٍ تجاوز حدَّه المتعارف يُقال عنه طاغٍ، فإذا تجاوز ماء النهر أو البحر منسوبه الطبيعي يُقال عنه طغى، لذلك قال الله تعالى في وصف الطوفان الذي وقع لقوم نوح عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[2]، ويُقال للسلطان طاغٍ وطاغية إذا إذا تجاوز حدود صلاحياته وأفحشَ في الظلم والبغي.

ومن ذلك يتّضح انّ عنوان الطاغية في الآية المباركة ليس بياناً لطبيعة عقوبةٍ محدَّدة، فليس ثمة نوعٌ من أنواع العقوبات اسمه طاغية بل إنّ عنوان الطاغية يكون نعتاً لأيِّ عقوبةٍ متجاوزة في شدّتها للحدّ المتعارف، ولذلك يكون هذا العنوان صادقاً على الصاعقة المتجاوزة للحد، وعلى الصيحة المتجاوزة للحدّ المتعارف، وعلى الرجفة المتجاوزة للحدّ المتعارف، فعنوان الطاغية نعتٌ لموصوفٍ محذوف وليس عقوبةً مستقلّة ذات طبيعةٍ خاصة.

وعليه فمعنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ هو انّ ثمود أُهلكوا بالصّاعقة الطّاغية لو كانت عقوبتهم متمحّضة في الصاعقة، ولو

١- سورة الحاقّة الآية/٥.

٢- سورة الحاقّة الآية/١١.

كانت عقوبتهم متمحِّضة في الصَّيحة فمعنى الآية انَّ ثمود أُهلكوا بالصيحة الطاغية، ولو كانت عقوبتهم متمحِّضة في الرجفة فإنَّ معنى الآية انَّ ثمود أُهلكوا بالرجفة الطاغية، ولو كانوا قد عُذِّبوا بالأنواع الثلاثة كما هو الصحيح فإنَّ معنى الآية انَّ ثمود أُهلكوا بالعقوبات الطاغية.

فليس بين عنوان الطاغية الوارد في الآية من سورة الحاقَّة وبين العناوين الثلاثة مباينة سواءً قلنا باتِّحاد العقوبة الواقعة على قوم ثمود أو قلنا بتعدّدها، ففي كلا الفرضين لا تكون الآية من سورة الحاقَّة مُنبِأةً عن عقوبةٍ أخرى غير العقوبات المُشار إليها في العناوين الثلاثة أعني الصاعقة والصيحة والرجفة.

ماذا عن قوم ثمود؟

ومن ذلك يتَّضح انَّ استفهام صاحب الشبهة عن انَّ قوم ثمود هل أُهلكوا بالطاغية أو أنَّهم أُهلكوا بالصاعقة يكشف عن جهله بالمدلول اللغوي لعنوان الطاغية.

كانت الصاعقةُ طاغيةً:

والجواب عمَّا استفهمه مُستنكراً هو انَّه نلتزم بأنَّ قوم ثمود أُهلكوا بالصاعقة المتَّصفة بالطاغية، فلم تكن الصاعقة التي أصابت قوم ثمود معهودة، ذلك لأنَّها أودت بحياة أمةٍ كاملة، فلم تُبقِ منهم من أحدٍ على

جديد الأرض بل صاروا جميعاً كما أفاد القرآن: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[١] ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[٢] وهذا ما صحَّح توصيف الصاعقة التي أصابتهم بالطاغية، إذ لا يتَّفق عادةً لصاعقةٍ أنْ تُحرق أمةً بكاملها لولا انَّها قد تجاوزت الحدّ المعهود الذي لم يتسنَ معه لأحدٍ الفرار منها أو اللجوء إلى مأمنٍ يحميه من لهبها وشظايا حريقها، لذلك وصف القرآن أحوالهم عند نزول الصاعقة بأنَّها أخذتهم أخذاً وكأنَّها قد إبتلعتهم فاستدارت حولهم بحيث لم يجدوا ثغرةً ينفذون منها إلى خلاص، ولهذا أخذت تشوي أجسادهم وأموالهم وهم ينظرون، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾[٣].

ومُحصَّلُ القول انَّ عنوان الطاغية ليس شيئاً آخر غير الصاعقة، وإنَّما هو وصفٌ لحدِّها، فالصاعقة قد تكون ضعيفةً نسبيًّا، وقد تكون شديدةً شدةً معهودة، وقد تتجاوز حدَّ الشدة المعهودة، فالقرآن الكريم أفاد بأنَّ الصاعقة التي أصابت قوم ثمود كانت شدَّتها متجاوزةً للحدِّ المعهود، وهذا هو معنى الطاغية.

١- سورة القمر الآية/٣١.

٢- سورة النمل الآية/٥٢.

٣- سورة الذاريات الآيتان/٤٤-٤٥.

ما المانع في أنْ تجتمع عقوبتان في آنٍ واحد؟!

وأما انَّ قوم عاد هل هلكوا بالصاعقة أو بالرياح الشديدة فقد اتَّضح الجواب عن ذلك ممَّا ذكرناه حول ما أصاب قوم ثمود، حيث قلنا إنَّه لا محذور في أنْ يجمع الله تعالى على قومٍ أكثر من عقوبة، فأيُّ مانعٍ في أنْ يُعذِّب اللهُ عزَّ وجل قوم عادٍ بالرياح الشديدة وبالصاعقة في آنٍ واحد خصوصاً وانَّ طبيعة هاتين العقوبتين كثيراً ما يكون وقوعهما متزامناً، فغالباً لا تقع الصاعقة إلا في ظرفٍ تكون فيه الرياح شديدة الهبوب وإنَّ هذه الرياح تكون منشأً لسرعة انتقال النار.

الصَّاعقة هي مطلق العذاب:

على انَّ عنوان الصاعقة كما ذكرنا يُستعمل لغةً وعرفاً في مطلق العذاب الذي من شأنه إهلاك مَن أصابه، وبناءً على ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] هو فإنْ تمادت قريش في غيِّها فأنذرهم بعذابٍ مهلكٍ كالعذاب الذي أصاب قوم عادٍ وكالعذاب الذي أصاب قوم ثمود، فلو كان ما أصاب قوم عادٍ مختلفاً عمَّا أصاب قوم ثمود فإنَّ ذلك غير ضائر، لأنَّ معنى الصاعقة في الآية المذكورة ليس هي النار التي تسقط من

١- سورة فصِّلت الآية/١٣.

السماء مصحوبةً بالرعد الشديد بل المراد من الصاعقة هو العذاب المهلك بقطع النظر عن طبيعته، ولا ريبَ في انَّ ما أصاب كلاًّ من عادٍ وثمود كان عذاباً مُهلكاً، فهما يشتركان في انَّ ما أصابهما كان عذاباً مُهلكا ولكنَّه مختلفٌ من حيثُ النوع، فالمصحِّح لإطلاق عنوان الصاعقة على ما أصاب كلٍّ من عادٍ وثمود رغم اختلاف طبيعة العذاب الذي أصابهما هو انَّ عنوان الصاعقة يعني العذاب المُهلك بقطع النظر عن طبيعته ونوعه.

القرينة على استعمال الصَّاعقة في مطلق العذاب:

والقرينة على انَّ مراد الآية من عنوان الصاعقة هو مطلق العذاب المُهلك وليس هو خصوص النار التي تسقط من السماء، القرينة البيِّنة على ذلك هو انَّ الآيات التي تلتْ هذه الآية تصدَّت لبيان ماوقع على قوم عاد، وأفادت انَّ ما وقع عليهم هو انَّ الله تعالى سلَّط عليهم ريحاً صرصراً في أيامٍ نَحِسات، فمن ذلك يتبيَّن المراد من انَّ صاعقة عادٍ في الآية التي تصدَّرت هذه المقطوعة من الآيات ليس هو الصاعقة التي بمعنى النار النازلة من السماء بل المراد منها هو العذاب المُهلك الذي من نوع الرياح الشديدةِ الهبوب والبرودة.

ولا يصحُّ التوهُّم من عاقلٍ مُنصِف بأنَّ الآيات تُناقض نفسها والحال انَّها واقعةٌ في سياق كلامٍ واحد، فهي في أول الآيات أفادت انَّ ما أصاب

قوم عادٍ هو صاعقة العذاب ثم بعد آيتين أفادت انّ ما أصابهم كانت ريحاً صرصراً في أيام نَحِسات، على انّ الواضح من سياق الآيات التي تلت قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ الواضح من الآيات التي تلت هذه الآية انّها بصدد تفصيل وشرح ما تمَّ إيجازه في هذه الآية، وذلك بقرينة تصدير الآية التي تلتْ هذه الآية بأداة التفسير والتفصيل وهى حرف "أمّا"، فحرف "أمّا" كما يذكر النُّحاة واللغويُّون تأتي حين يُراد تفصيل ما تمَّ إجماله وإيجازه.

قال تعالى: فإذا كانت الآيات التي تلت ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾[١].

فإذا كانت الآيات التي تلتْ الآية الأولى سِيقت لتفصيل ما تمَّ إيجازه في الآية الأولى فمعنى ذلك انّ مراد الآية الأولى من عنوان الصاعقة هو

١- سورة فصِّلت الآيات/١٣-١٦.

ماتمَّ بيانه في الآيات اللاحقة، وما تمَّ بيانه هو انَّ العذاب الذي وقع على قوم عادٍ هو انَّ الله تعالى بعث عليهم ريحاً صرصراً في أيام نَحِسات.

فلتكن عقوبتين.. أين التناقض؟!

ومُحصَّل ما ذكرناه في معنى الصاعقة التي أصابت قوم عاد هو انَّ المراد منها هو العذاب المهلِك والذي تمَّ تفسيره -في ذات الآيات التي استعملت عنوان الصاعقة- بالريح الشديدةِ الهبوب والبرودة، ولو تنزَّلنا جدلاً وقَبِلنا بأنَّ المراد من الصاعقة في الآية المذكورة هو النار التي تسقط من السماء مصحوبةً بالرعد الشديد فإنَّ ذلك غير ضائرٍ بعد عدم امتناع انْ يجمع الله تعالى على قومٍ عقوبتين من طبيعتين مختلفتين، فيكون ما أصاب قوم عادٍ هو النار المصحوبة بالرَّعد مضافاً إلى الريح الشديدةِ الهبوب والبرودة، فكان في كلٍّ من العقوبتين هلاكهم.

وأما إخبار القرآن الكريم عن إحدى العقوبتين في مورد وعن العقوبة الأخرى في موردٍ آخر فذلك غير ضائرٍ أيضاً خصوصاً وانَّه أخبر عن العقوبتين في سياق كلامٍ واحد، غايته انَّه قدَّم الإخبار عن إحدى العقوبتين ثم أردفه قبل انْ يُنهي كلامه بالإخبار عن العقوبة الثانية.

على انَّه لو أخبر عن كلٍّ عقوبةٍ في كلامٍ مستقل فإنَّ ذلك ممَّا لا محذور فيه بعد عدم التنافي بين مفاد الخبرين، فكثيراً ما يتصدَّى العقلاء من أهل الكلام والمحاورة لبيان بعض ما فعلوه أو شاهدوه ثم في موضعٍ

آخر يتصدَّون لبيان مالم يكونوا قد أخبروا عنه ممَّا قد فعلوه أو شاهدوه، وكلٌ ذلك خاضعٌ لغرض المتكلِّم وملاحظته لمناسبات ومقتضيات المقام والمتلقِّي للخطاب. وقد فصَّلنا ذلك في مواضعَ عديدة من هذا الكتاب فلاحظ.

الخلاصة:

وبذلك يتَّضح الجواب عمَّا تساءل عنه صاحبُ الشبهة عن انَّ قوم عاد وقوم ثمود هل كان هلاكهم بطريقةٍ واحدة أو بطريقتين؟ فإنَّ جواب ذلك هو انَّ هلاك قوم عاد كان بالرياح الشديدة التي امتدَّت لثمانية أيام، وأما هلاك قوم ثمود فكان بالصيحة والصاعقة والرجفة، فطريقةُ الهلاك كانت مختلفة، ومع التنزُّل الذي ذكرناه يكون كلٌ منهما قد عُوقب مضافاً إلى العقوبة الخاصَّة بعقوبةٍ مشتركة، وهي الصاعقة التى تعني إصابتهم برياحٍ نارية نشأت عن اصطكاك السحاب المصحوب بالرعد الشديد.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة التاسعة والثلاثون

تغيير عدّة المتوفى عنها زوجها

الشبهة التاسعة والثلاثون

تغيير عدَّة المتوفى عنها زوجها

في البدء أمر الله الأرملة بالاعتداد حولاً كاملاً ثم نُسخ بأربعة أشهر وعشراً، قال في سورة البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إلى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾[1] هذه الآية منسوخة بآيةٍ سبقتها هي: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[2] مثل هذه الآيات الناسخة تدلُّ على أنَّ القائل لم يكن متمكناً من معرفة الاحتياجات النفسيَّة والجنسيَّة والاجتماعيَّة للمرأة بشكلٍ تام، فإنْ كان الله فإنَّه الأعرف بمخلوقاته لأنَّه العلام الملم بكلِّ شيء، وبالتالي فإنَّ من المشكوك فيه أن تكون الآيات تلك من عند الله.

١- سورة البقرة الآية/٢٤٠.

٢- سورة البقرة الآية/٢٣٤.

الجواب

آية الحول غير ظاهرة في العدّة

الحكم بنسخ آية متاعاً إلى الحول بآية وجوب العدَّة أربعة أشهرٍ وعشرا مبتنٍ على دلالة آية الحول على وجوب العدَّة على المرأة المتوفّى عنها زوجها حولاً كاملاً، وأمَّا إذا لم تكن الآية ظاهرةً في وجوب الاعتداد عليها حولاً كاملاً فلا موجب للبناء على انَّها منسوخة بآية انَّ العدَّة أربعة أشهرٍ وعشرا.

ومع النظر في آية الحول يتَّضح انَّها ليست ظاهرةً في وجوب الاعتداد حولاً كاملاً على الزوجة المتوفَّى عنها زوجها، وإنَّما هي ظاهرة في انَّه ينبغي أو يلزم الزوج الذي يخلِّف من بعده زوجةً أو زوجاتٍ أنَّ يُوصي لهنَّ بالنفقة من أمواله والسكنى في بيته مدَّة حولٍ كامل، وحينئذٍ يلزم الورثة إنجاز وصيته بذلك، فلا يجوز لهم إخراج زوجاته من بيته وحرمانهنَّ من النفقة مدةَ الحَول، ولكنَّ زوجاته لو اخترن الخروج فإنَّ الورثة في سعةٍ من جهة النفقة عليهن، فلا يلزمهم حينئذٍ الإنفاق عليهنَّ

بعد خروجهن اختياراً من بيت زوجهن، وليس على الورثة وأولياء الميِّت من حرجٍ فيما فعلت الزوجات بأنفسن، فليس لهم منعهنَّ من كلٍّ ما يفعلنه بأنفسهنَّ من معروف ومنه الزواج من آخر.

لا منافاة ولا نسخ!

فإذا كان هذا هو ظاهر الآية المباركة فهي ليست منافية لآية وجوب الاعتداد أربعة أشهرٍ وعشرا حتى يُدَّعى انَّها ناسخة لآية الحول، فيمكن الالتزام بأنَّ مدَّة العدَّة الواجبة هي أربعة أشهرٍ وعشرا ورغم ذلك فإنَّ على الزوج وجوباً أو استحباباً الإيصاء لزوجاته بالنفقة والسكنى مدَّة حولٍ كامل إذا لم يخرجن من بيت الزوجيَّة.

ظهور آية الحول في الإيصاء للزّوجة

والذي يؤكِّد ظهور آية الحول فيما ذكرناه من انَّها بصدد الأمر بالإيصاء للزوجة بالنفقة والسكنى والأمر للورثة بإنجاز الوصية، وأنَّها ليست بصدد الأمر للزوجة بالاعتداد هو انَّ الخطاب في الآية موجَّهٌ أولاً للزوج بأنَّه مأمورٌ بالإيصاء: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً﴾ أي إنَّ اللذين يشرفون على الموت ويُخلِّفون وراءهم زوجاتٍ فإنَّ عليهم الإيصاء لهنَّ بمَتاع حولٍ كامل من أموالهم.

وموجَّه ثانياً لأولياء الميِّت وورثته بعدم إخراجهنَّ من بيت الزوج كما هو مقتضى مفاد قوله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فإنَّ إخراج الزوجات من بيت زوجهن الميِّت لا يُنتظر إلا من الورثة، فالخطاب بالنهي عن الإخراج موجَّهٌ لهم، ثم خاطبت الآية الورثة بالقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ليس عليكم أيُّها الورثة من حرجٍ لو انَّ الزوجات خرجن من بيت الزوج اختياراً.

فالآية متصدِّية للأمر بالإيصاء والأمر بإنجاز الوصية، فالأمر الأول موجَّهٌ للأزواج والأمر الثاني موجَّهُ لورثة الأزواج، وليس في الآية خطاب وتكليفٌ للزوجات بشيء بل فيها دلالة على تخييرهنَّ بين الإستفادة من الوصية بالبقاء في بيت الزوجيَّة وبين الخروج وفعل أيٍّ شيءٍ أردْنَهُ بالمعروف.

وهذا بخلاف ماهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ فإنَّه مشتملٌ على خطاب موجَّهٍ للزوجات بوجوب التربُّص بأنفسهنَّ أربعة أشهرٍ وعشرا، والتربُّص يعني التريُّث والانتظار، فالجملة الخبريَّة الفعلية: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ سيقت لغرض الإنشاء فهي ظاهرة في الأمر بلزوم التربُّص والصبر في المدة المذكورة، لذلك فهي مفيدة لوجوب العدَّة وترك التزوُّج ريثما ينقضي الوقت الذي قررته الآية المباركة.

فآية الحول متصدِّية لشأنٍ غير الشأن الذي تصدَّت له آية التربُّص أربعة أشهرٍ وعشرا، لذلك لا موجب للبناء على انَّ إحداهما ناسخة للأخرى.

مناقشة القول بالنسخ

وأما ما عليه المشهور من الفقهاء والمفسِّرين من انَّ آية الحول منسوخة بآية الأربعة أشهرٍ وعشرا فمنشأه ماورد في عددٍ من الروايات[١]، ودعوى البعض الإجماع[٢]، واستظهار البعض ذلك من الآية.

أما الروايات فهي أخبارٌ آحاد، ولا يثبت نسخٌ بأخبار الآحاد على انَّ ما ورد منها في طرقنا فهو ضعيف السند وما ورد من غير طرقنا فهو غير معتَبر، وأما دعوى الإجماع فلا يُعتدُّ بها لعدم حجيَّة الإجماع المنقول، هذا مضافاً إلى انَّه من الإجماعات المحتمِلة للمدركيَّة، وقد ثبت في علم الأصول انَّ الإجماع المنقول أو المحتمِل للمدركية فاقدٌ للحجيَّة، على انَّ المستظهر من العديد من الفقهاء هو ان الحكم بالنسخ مبنيٌّ على إفادة

١- وسائل الشيعة -الحر العاملي- ج٢٢ ص٢٣٧-٢٣٨، جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبري- ج٢ ص٧٨٥.

٢- مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام -الجواد الكاظمي- ج٤ ص٧٣، فقه القرآن -قطب الدين الراوندي- ج٢ ص١٧١، التبيان في تفسير القرآن -الشيخ الطوسي- ج٢ ص٢٧٨، الجامع لأحكام القرآن -تفسير القرطبي- ج ٣٠ ص٢٢٦.

آية الحول لوجوب العدة حولاً كاملاً، ثم انَّ عدداً من الفقهاء والمفسِّرين(١) ذهبوا إلى انَّ آية الحول ليست منسوخة بآية العدَّة أربعة أشهر وعشرا، وذلك ما ينقض دعوى الإجماع.

وأما دعوى ظهور آية الحول في وجوب الاعتداد حولاً كاملاً فهي دعوى لم تنشأ عن ملاحظة مفاد الآية وإنَّما نشأت عن ملاحظة الروايات، إذ انَّ الآية كما اتَّضح ليس لها ظهورٌ في أكثر من انَّها بصدد الأمر بالإيصاء للزوجة بالنفقة والسكنى مدَّة حول كامل، وهذا معناه انَّ النفقة والسكنى حقٌّ للزوجة وليس حكماً إلزاميًّاً عليها، ولذلك أفادت الآية: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ فإنَّه لو كانت الآية متصدِّية لوجوب الاعتداد على الزوجة حولاً كاملاً لما كان لها الخروج من بيت الزوجيَّة.

لو سلَّمنا بالنسخ فلا تتمُّ الشّبهة أيضاً

ثم انَّه مع القبول بما عليه المشهور من دعوى ظهور الآية في وجوب الاعتداد حولاً كاملاً وبذلك تكون منسوخة بآية العدَّة أربعة أشهرٍ وعشرا فإنَّه لا محذور من الالتزام بذلك، ولا يلزم منه -كما ادَّعى صاحب الشبهة- الجهل بالاحتياجات النفسيَّة والجنسيَّة والاجتماعيَّة للمرأة.

١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبري- ج٢ ص٧٨٧.

هل النسخ يستلزم الجهل؟!

لأنَّ دعوى استلزام النسخ في المقام للجهل نشأ عن توهُّم انَّه لو كان المشرِّع محيطاً بما تقتضيه الحاجة النفسيَّة والجنسيَّة والاجتماعيَّة للمرأة لما فرض عليها أولاً الاعتداد حولاً كاملاً ثم خفَّف ذلك عنها فجعله أربعة أشهرٍ وعشرا، فإسقاطه لمقدارٍ يصل إلى سبعة أشهرٍ وعشرين يوماً يُعبِّر عن انَّه قد تبيَّن له بعد تشريعه الأول انَّ ذلك التشريع منافٍ لما تقتضيه حاجة المرأة، فهو إذن كان جاهلاً بما تقتضيه حاجة المرأة أو انَّ كلاً الحكمين الناسخ والمنسوخ كان جزافياً غير مبتنٍ على ملاحظة ماتقتضيه حاجة المرأة.

الجواب:

وهذا التوهُّم نشأَ عن الغفلة عن انَّ أحكام الله تعالى لا تُلاحظ ملاكاتها حين الجعل من حيثيةٍ واحدة، فقد تكون حاجة المرأة مقتضية لعدم امتداد العدة لأكثر من أربعة أشهرٍ وعشرا بل قد تكون مقتضية لعدم الامتداد حتى لثلاثة أشهر ورغم ذلك يفرض عليها الاعتداد حولاً كاملاً، وذلك لأنَّ جعل الأحكام الشرعية يقوم على أساس الملاحظة لجميع أوجه المصالح والمفاسد والموازنة بينها ثم جعل الحكم المناسب للمصلحة الغالبة.

فالفعل مثلاً المعبَّر عنه بمتعلَّق الحكم قد يكون متمحِّضاً في المفسدة التامَّة كقتل النفس البريئة، وقد يكون متمحِّضاً في المصلحة التامَّة كإنقاذ النفس البريئة، ففي الفرض الأول تجعل الحرمة على الفعل ابتداءً وفي الفرض الثاني يُجعل الوجوب على الفعل ابتداءً.

وقد يكون الفعل مشتملاً على مصلحةٍ ومفسدة أو عددٍ من المصالح والمفاسد أو يكون ذا مصلحةٍ ولكن فعله يُفوِّتُ مصلحةً أخرى أو يُوجب الوقوع في مفسدة، فهذا الفرض يُعبَّر عنه بالتزاحم بين المِلاكات، وهو يقتضي الموازنة وتغليب ما هو الأهم مِلاكاً، ولا يصحُّ في مثله الملاحظة لمصلحةٍ واحدة وجعل الحكم المناسب لها وإغفال ما يترتَّب على جعل الحكم المناسب لها من تفويت للمصالح الأخرى أو الإيقاع للمفاسد بل لابدَّ من ملاحظة مجموع المصالح والمفاسد والموازنة بينها ثم جعل الحكم المناسب للمصلحة الأهم مِلاكاً أو المناسب لدرء المفسدة الأهم مِلاكاً، وذلك وإنْ كان يُفضي إلى تفويت بعض المصالح والإيقاع في بعض المفاسد إلا انَّه لو رُوعيت تلك المصالح الفائتة أو المفاسد الواقعة لترتَّب على ذلك التفويتُ للمصلحة الأهم أو الوقوعُ في المفسدة الأشد، فالموازنة عند تزاحم الملاكات تُحتِّم تغليب ما هو الأهم ملاكاً وإنْ ترتَّب على ذلك التفويت لبعض

المصالح والوقوع في بعض المفاسد التي هي دون المصلحة المرعية في الأهمية.

أمثلة للتوضيح:

المثال الأول:

ومثال ذلك إنقاذ الغريق لو استلزم اقتحام مزرعة الغير وإتلاف بعض محتوياتها دون إذنه، فإنَّ جعل الحكم في مثل هذا الفرض يخضع للموازنة بين المِلاكات، فالإنقاذ للغريق فيه مصلحة، واقتحام أملاك الغير دون إذن والإتلاف لأمواله دون إذنه فيهما مفسدة وقد تكون عظيمة خصوصاً إذا كانت الأموال خطيرة.

فهنا لا يمكن الحكم بحرمة الاقتحام والاتلاف باعتبار اشتمالهما على المفسدة وإغفال المصلحة التي ستفوت نتيجة الحكم بحرمة الاقتحام والإتلاف بل لابدَّ من ملاحظة مجموع المصالح والمفاسد والموازنة بينها وتغليب المِلاك الأهم وجعل الحكم وفقاً لما يقتضيه المِلاك الأهم من هذه المِلاكات المتزاحِمة.

فحين يكون الحكم المجعول بعد الموازنة بين المِلاكات المتزاحمة هو الوجوب للإنقاذ فإنَّه لا يسع من أحدٍ الإشكال على هذا الحكم بأنَّه تسبَّب في مفسدةٍ هي اقتحام أملاك الغير وإتلاف بعض محتوياتها، لأنَّ هذه المفسدة لا محيص عن الوقوع فيها، إذ انَّ المحاذرة من الوقوع في

ذلك يُفضي إلى تفويت مصلحةٍ أكبر والوقوع في مفسدةٍ درؤها أشدُّ مفسدةً من من المفسدة التي نشأت عن إيجاب الإنقاذ.

المثال الثاني:

وهكذا حينما يحكم المشرِّع بحرمة شرب الخمر فإنَّ الإشكال بأنَّ تحريمه موجبٌ لتفويت المصالح والمنافع المترتِّبة على الشرب للخمر، فإنَّه وإنْ كان الأمر كذلك إلا أنَّه بتحريمه للخمر قد درءَ مفسدةً درؤها أهم مِلاكاً من المنفعة الفائتة بتحريمه، فلا يصحُّ ملاحظة الفعل من حيثيةٍ وإغفال الحيثيَّات الأخرى، لذلك قال الله تعالى في الخمر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[1].

تطبيق الجواب على مورد الشبهة

والأمر كذلك بالنسبة لإيجاب الاعتداد على المتوفَّى عنها زوجُها حولاً كاملاً، فإنَّه لا يصحُّ الإشكال على هذا الحكم بأنَّه منافٍ لما تقتضيه الحاجة النفسيَّة والجنسيَّة للمرأة، فإنَّ الأمر قد يكون كذلك ولكنَّ تشريع العدَّة لا يُلحظ فيه حاجة المرأة فحسب فإنَّ ثمة اعتبارات ومقتضيات متقاطعة وحيثيَّات متباينة قد تكون الملاحظة لمجموعها والموازنة بينها

١- سورة البقرة الآية/٢١٩.

مفضياً لضرورة فرض وقتٍ للعدّة يتجاوز الوقت المناسب لحاجة المرأة النفسيَّة والجنسيَّة، فلا يصحُّ الإشكال على ذلك بأنَّه منافٍ لما تقتضيه حاجة المرأة، لأنَّ ثمة مصلحةً أهم تمَّ تغليبها نظراً لتزاحم المِلاكات، فذلك وإنّ أفضى إلى تفويت مصلحةٍ على المرأة إلا انَّه لو رُوعيت هذه المصلحة الفائتة على المرأة لأوجب ذلك فوات مصلحةٍ أهم أو لأوجب ذلك الوقوع في مفسدةٍ كان درؤها أهم مِلاكاً.

العلّة في تخفيف العدّة

وأما لماذا خُفِّفت العدَّة فأصبحت أربعة أشهرٍ وعشرا إذا كانت المصلحة الأهم مقتضية لجعلها حولاً كاملاً فذلك لأنَّ المصلحة الأهم التي رُوعيت في تشريع الحول الكامل قد ارتفعت فأصبحت المصلحة الأهم مقتضية لجعل العدَّة أربعة أشهرٍ وعشرا، فذلك هو ما أدَّى إلى نسخ الحكم الأول وجعل الحكم الآخر كما هو الشأن في كلِّ موارد النسخ، فأحكام الله تعالى تابعةٌ للمصالح والمفاسد، فهي تدور مدارها وجوداً وعدماً، فمتى ما كانت المصلحة مقتضية لشيء فإنَّ الحكم يُجعل وفقاً لما تقتضيه تلك المصلحة بعد الموازنة، فإذا زالت تلك المصلحة وصارت مقتضية لشيءٍ آخر فإنَّ الحكم يُجعل وفقاً للمصلحة الحادثة. فلا يصحُّ بنظر العقلاء الوقوف على حكمٍ تمَّ جعله أولاً إذا كان مِلاك جعله قد انتفى وأصبح المِلاك مقتضياً لجعل حكمٍ آخر.

هل تتبدّل المصلحة؟!

وأما انَّه كيف تكون المصلحة مقتضية في وقتٍ لحكم ثم تتبدّل فتُصبح مقتضية لحكم آخر؟

فجوابه بيِّنٌ ويكفي الوجدان اليومي للوقوف على إمكانه، فكثيراً ما يأمر الأب ابنه والمعلِّم تلميذه بفعلٍ ثم بعد برهةٍ من الزمن يمنعه منه لا لأنَّه قد تبيَّن له خطأ أمره الأول بل لأنَّ الفعل كان في الزمن الأول واجداً للمصلحة ثم أصبح واجداً للمفسدة أو فاقداً لكلٍّ مصلحة أو أصبح مزاحَماً بمصلحةٍ أهم اقتضت المنع والأمر بفعلٍ آخر، وكذلك فإنَّ الطبيب قد يأمر المريض بشرب دواءٍ معيَّن ثم بعد مدَّةٍ من الزمن ينهاه عن شربه ويأمره بشرب دواءٍ آخر، لأنَّ الدواء الأول بعد ان كان نافعاً للمريض أصبح ضاراً له لأنَّه استوفى غرضه فيُصبح مفعوله بعدئذٍ ضاراً بصحة المريض.

فاقتضاء المصلحة لفعلٍ ثم اقتضاؤها بعد برهةٍ من الزمن لغيره بل لنقيضه أمرٌ شائع ومشهودٌ وجداناً، فلا يصحُّ في مثل هذا الفرض الوقوف على الأمر بالفعل الأول بعد أنْ زالت عنه المصلحة المقتضية للأمر به وأصبحت مقتضية للأمر بفعلٍ آخر، كما انَّ الانتقال إلى الأمر بالآخر في الفرض المذكور لا يُعبِّر عن تبيُّن خطأ الأمر بالأول، لأنَّ الأمر بالأول كان هو المناسب للمصلحة في وقته ثم بعد أنْ زالت عنه

المصلحة وأصبحت بجانب الفعل الآخر أو أصبحت المصلحة مزاحَمة بمصلحةٍ أهم فمقتضى التعقُّل هو الأمر بالفعل الذي أصبح مناسباً للمصلحة في فرض أن الفعل الأول قد زالت عنه المصلحة أو أصبح واجداً للمفسدة، وكذلك يكون مقتضى التعقُّل هو الأمر بالفعل الواجد للمصلحة الأهم بعد أن أصبح الفعل الأول مزاحَماً بها.

فالأمر كان كذلك حتماً بناءً على فرض العدّة حولاً كاملاً ثم جعلها بعد برهةٍ من الزمن أربعة أشهرٍ وعشرا، فإنّ فرض الحول الكامل كان هو المناسب لما تقتضيه المصلحة بعد الموازنة بين المِلاكات المتزاحمة ثم أصبحت المصلحة الأهم مِلاكاً بجانب فرض العدّة أربعة أشهرٍ وعشرا.

إشكال: هل اختلف الزمانان لتختلف العدّة؟

ولو قيل انّه لا نتعقَّل فرقاً بين الزمان الأول الذي فُرض فيه الحول الكامل وبين الزمان الثاني الذي فُرض فيه الأربعة أشهر والعشرة أيام.

الجواب:

فإنّ جوابه انّ من غير الإنصاف والموضوعيَّة الجزم بعدم الفرق بين الزمانين رغم الجهل بالملابسات والظروف الاجتماعية والثقافية التي اكتنفت الفرض بالحول الكامل والفرض بالأربعة أشهر والعشرة الأيام بعد ذلك، ومن المعلوم انّ المجتمع الذي بُعث فيه النبي ﷺ كان قد

شهد تحوُّلاً ثقافيًا واجتماعياً متسارعاً في صدر الإسلام فكان يظهر جليًّاً هذا التحوُّل بين المدَّة والمدَّة القريبة منها.

ولا ريب انَّ مثل الموروثات الثقافية والتربويَّة والاعتبارات الاجتماعيَّة كثيراً ما تكون دخيلة في صيرورة بعض الأفعال مناسبة لما تقتضيه المصلحة أو مقتضية لصيرورة الفعل ذا مفسدة رغم انَّه واجد للمصلحة في نفسه لو قُطع النظر عن ملاحظة هذه الملابسات.

والذي يؤكِّد انَّ ذلك كان دخيلاً فيما فُرض من عدَّة هو انَّ عدَّة المتوفى عنها زوجها كانت في العصر الجاهلي حولاً كاملاً فكان أولياء الميِّت يستوحشون ويأنفون من انْ تتزوج زوجة ميِّتهم من أجنبي قبل انقضاء هذه المدَّة، وكان مفروضاً عليها الحداد على ميِّتهم حولاً كاملاً، وكان السائد في أعرافهم آنذاك انَّ المرأة المتوفَّى عنها زوجها مُلزَمة بالانتقال إلى أحقر بيت من بيوتات زوجها والمكث فيه مدَّة الحول، وكان عليها انْ تختار من الثياب الأطمار البالية فتلتزم بلبسها مدَّة العدَّة، وليس لها أنْ تستحمَّ أو تمْتشط أو تُقلِّم أظفارها أو تُزيل ما ينبت من شعر على بدنها بل ليس لها أنْ تتنظَّف من حيضٍ أو استحاضة ثم إذا أكملت الحول أخذت طائراً حيًّاً فمسحت بريشه موضع الحيض، وغالباً ما يموت هذا الطائر لقذارة الموضع وشدَّة نتَنه ثم انَّها تأخذ بَعَرَةً فتدحرجها على ظهر حمارٍ أو كلب أو تُلقي بالبَعرة خلفها وتقول: قد

حللت[١]، فهي بمقتضى الثقافة السائدة تظلُّ في عهدة زوجها الميِّت وورثته مدّة الحول ثم انه لا يكون لها من ميراثه شيء.

فهذه الثقافة السائدة والمتأصِّلة تقتضي التدرُّج في تهذيبها، فأقرَّ الإسلام أولاً الحول الكامل وأمر في ذات الوقت الزوج بأنْ يُوصي لها بالنفقة والسكنى في بيت الزوجيَّة، وليس في أحقر وأسوأ بيوتات الزوج، ثم انَّه ألغى الكثير من الطقوس التي جرت العادة على ضرورة التزام المعتدَّة بها مثل عدم الاستحمام والتنظُّف والتمشُّط ولزوم الاعتداد في بيت الزوج، فأباح لها الخروج من بيت زوجها والاعتداد عند أهلها.

فالمشرِّع وجد انَّ المصلحة مقتضية لإقرار الحول أولاً، نظراً لاستبشاع العرف السائد تزوُّج المرأة قبل انقضاء الحول، ونظراً لاستيحاش واستنكاف أولياء الميِّت من تزوُّج امرأة ميِّتهم من غيره قبل اعتدادها وحدادها حولاً كاملاً إلا انَّه رغم إقراره للحول أخذ في تهذيب ما يلحق العتداد من ممارسات جاهليَّة ثم انَّه وبعد انْ تأصَّل الإسلام في

١- لاحظ وسائل الشيعة -الحر العاملي- ج٢٢ ص٢٣٧، جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبري- ج٢ ص٦٩٦، شرح صحيح مسلم -النووي- ج١٠ ص١١٦، مسند أحمد -الإمام أحمد بن حنبل- ج٦ ص٢٩٢، السنن الكبرى -أحمد بن الحسين البيهقي- ج٧ ص٤٢٨، فتح الباري -ابن حجر- ج٩ ص٤٣١، صحيح البخاري -البخاري- ج٦ ص١٨٦، عمدة القاري -العيني- ج٢١ ص٤، الديباج على مسلم -جلال الدين السيوطي- ج٤ ص١١٣، وغيرها.

الوسط الاجتماعي وضعفت علاقتة بالموروثات الثقافية الجاهليَّة فرض المشرِّع في العدَّة ماينبغي ان تكون عليه من وقت وفرض للزوجة ميراثاً من تركة زوجها وهو الربع إنْ لم يكن له ولد، والثُمن إنْ كان له ولد.

فالمشرِّع كان يعلم من أول الأمر انَّ العدَّة التي سوف يتمُّ فرضها مؤبداً على المرأة المتوفَّى عنها زوجها هي التي يمتدُّ أمَدُها لأربعة أشهر وعشرة أيام إلا انَّ المصلحة بعد الموازنة بين الملاكات كانت تقتضي فرض الحول أولاً، فالفرض للحول أولاً ثم فرض الأربعة أشهر وعشرا لم يكن ناشئاً عن تبيُّن عدم ملائمة فرض الحول لمقتضيات المصلحة بل لأنَّ المصلحة الأهم كانت مقتضية لفرضه أولاً ثم نسخه وفرض الأربعة أشهر والعشرة أيام كما هو الشأن في كلٍّ موارد النسخ، ولم يكن من المصلحة الإخبار عن انَّ هذا الحكم سوف يتمُّ نسخه فيما بعد، لأنَّ ذلك منافٍ لما يرومه المشرِّع من التدرُّج بالناس، فهم كانوا يستوحشون ويستبشعون زواج المرأة قبل انقضاء الحول الكامل، فإخبارهم انَّ الحكم سوف يُنسخ، قد يترتَّب عليه نقض الغرض.

فالمشرِّع كان يتعاطى في هذا الشأن دور المربِّي البصير الذي يعلم بما سوف يأمر به تلامذته وما سوف يزجرهم عنه وما سيُرشدهم إليه ولكنَّه لا يُلقي بأوامره وزواجره وإرشاداته في وقتٍ واحد بل يتدرَّج بهم في ذلك مراعياً ما تقتضيه مصلحتهم، فقد يأمر بفعلٍ وهو يعلم انَّه سوف

ينهى عنه فيما بعد، وقد يُقرُّهم على فعلٍ وهو يعلم انَّه سوف يزجرهم عنه فيما بعد، وقد يتسامح في أمرٍ ثم يفرضه عليهم فيما بعد.

جواب نقضي من كتاب العهدين

والمتحصَّل انَّ الالتزام بنسخ آية الحول بآية انَّ العدة أربعة أشهرٍ وعشرا لا محذور فيه، ولا يستلزم الجهل بحاجة المرأة كما توهمه صاحب الشبهة وتبيَّن فساد هذا الوهم.

وهنا نُضيف إلى ما ذكرناه جواباً نقضيًّا من كتاب العهدين الجامع للتوراة والإنجيل حيثُ انَّ صاحب الشبهة يؤمن بعصمة هذا الكتاب بعهديه القديم وهو التوراة، والجديد وهو الإنجيل.

الطلاق مباحٌ ثم حرام كحرمة الزنا!!

فقد ورد في هذا الكتاب انَّ الطلاق مباحٌ مطلقاً ولأيٍّ مبرِّرٍ كان، ثم إنَّ هذا الحكم تمَّ نسخه فأصبح الطلاق محرَّماً إلا في فرض اقتراف الزوجة للزنا، وفيما عدا ذلك يكون الطلاق محرَّماً وباطلاً، فمَن طلَّق زوجته وتزوَّج من أخرى فهو زانٍ، ومن تزوَّج من مطلقةٍ فقد زنى.

فالحكم بالإباحة والصحة ورد في الأصحاح الرابع والعشرين من سفر التثنية رقم١-٣ من العهد القديم، قال: "إذا أخذ رجلٌ امرأةً وتزوَّج بها فإنْ لم تجد نعمةً في عينيه لأنَّه وجد فيها عيب شئ وكتب لها كتاب

طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجلٍ آخر فإنْ أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتَّخذها له زوجة لا يقدر زوجها الأول الذي طلَّقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة"[١].

والحكم بحرمة الطلاق وفساده ورد في الإصحاح الخامس من إنجيل متّى رقم ٣٢، ٣١ من العهد الجديد قال السيد المسيح: "وقيل مَن طلَّق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأمَّا أنا فأقولُ لكم إنَّ مَن طلَّق امرأته إلا لعلَّةِ الزنى يجعلها تزني. ومَن يتزوَّج مطلَّقةً فإنَّه يزني"[٢].

وفي الإصحاح العاشر من إنجيل مرقس رقم ١١، ١٢ عن السيد المسيح: "فقال لهم مَن طلَّق امرأته وتزوَّج بأُخرى يزني عليها وإن طلَّقت امرأةٌ زوجها وتزوَّجت بآخر تزني"[٣].

وفي الإصحاح السادس عشر من إنجيل لوقا رقم ١٨: "كلٌ مَن يُطلِّق امرأته ويتزوَّج بأُخرى يزني. وكلٌ من يتزوَّج بمطلقةٍ من رجلٍ يزني"[٤].

١- الكتاب المقدَّس (العهد القديم) -الكنيسة- ص٣١٦.

٢- الكتاب المقدَّس (العهد الجديد) -الكنيسة- ص٩.

٣- الكتاب المقدَّس (العهد الجديد) -الكنيسة- ص٧٤.

٤- الكتاب المقدَّس (العهد الجديد) -الكنيسة- ص١٢٦.

فالنصُّ الوارد في سفر التثنية صريحٌ في إباحة الطلاق، وانَّه مباحٌ مطلقاً كما هو واضح من قوله: (لأنَّه وجد فيها عيبُ شئٍ) فمطلق العيب مبيحٌ للطلاق بمقتضى ما هو مفاد النص الوارد في سفر التثنية، بل انَّ الطلاق مباح لمجرَّد الكراهة للزوجة وإنْ لم يكن ذلك ناشئاً عن عيبٍ فيها كما هو مقتضى قوله في ذات النص: (فإنْ أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته) فالطلاق مباحٌ مطلقاً، وهو صحيحٌ بمقتضى مثل قوله في ذات النص: (وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجلٍ آخر) فلو لم يكن الطلاق صحيحاً لما جاز لها انْ تصير زوجةً لرجل آخر.

وأما النص الوارد في إنجيل متَّى فهو صريحٌ في انَّه بصدد إلغاء الحكم بإباحة الطلاق وصحته وانَّه ناظرٌ لما ورد في سفر التثنية حيث قال: (وقيل مَن طلَّق امرأته فليعطها كتاب طلاق) ثم تصدَّى لإلغاء هذا الحكم بقوله: (وأما أنا فأقول لكم إنَّ من طلَّق امرأته إلا لعلَّة الزنى يجعلها تزني. ومَن يتزوَّج مطلقةً فإنَّه يزني).

وأصرح من هذا النص في الحرمة ما ورد في إنجيل لوقا، قال: (كلُّ مَن يُطلق امرأته ويتزوج بأُخرى يزني. وكلُّ مَن يتزوَّج بمطلقةٍ من رجلٍ

يزني) وكذلك ماورد في إنجيل مرقس: (فقال لهم مَن طلَّق امرأته وتزوَّج بأُخرى يزني عليها).

لماذا؟!

فلماذا كان الطلاق مباحاً وكان التزوُّج من أخرى بعد طلاق الأُولى مباحاً ثم صار محرَّماً كحرمة الزنى؟ أليس هذا هو النسخ الذي يُشنِّع به صاحب الشبهة على المسلمين؟! فهل يلتزم صاحب الشبهة انَّ الله تعالى أباح الطلاق وصحَّحه ثم تبيَّن له انَّ هذا الحكم خاطئ فنسخه وفرض حكماً آخر؟!.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الأربعون

آيتا التحليل والتحريم أيُّهما نسخَ الآخر؟

الشبهة الاربعون

آيتا التحليل والتحريم أيُّهما نسخَ الآخر؟

يُقصد بالناسخ والمنسوخ، التدريج في توصيل استحقاقات والتزامات العبد تجاه ربِّه وأوامر الرّب، بمعنى أنّ يأتيك اليوم أمراً متواضعاً يسير الأداء ثم بعد فترةٍ معقولة يمكن أنّ يزداد ثقل التكليف بعد أن تكون قد تمرنت أنت ومن معك من المؤمنين على الالتزام الأول المتواضع، لكن كيف يأتي الأمر أو التكليف معكوساً بالكامل عن ما سبقه، أي تضادٌ وليس تدرج، فهذا هو المستغرب، ففي سورة الأحزاب الآية الثانية والخمسين يقول الله لمحمد: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾[1] فهنا نُهي محمد عن الزواج غير أنَّ الله رجع في كلامه وبدَّله بأمرٍ مناقض هو الآية خمسين من نفس السورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَامْرَأَةً

١- سورة الأحزاب الآية/٥٢.

٢- سورة الأحزاب الآية/٥٠.

مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ فقارن معي القول: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ﴾ بالقول ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا﴾ والغريب جداً أنَّ التحليل أتى أولاً ثم التحريم أتى بعد ذلك، فالناسخ جاء أولاً ثم المنسوخ جاء بعد ذلك.

الجواب

تحرير الشبهة

إنَّ ما أورده صاحبُ الشبهة من إشكالٍ مبنيٌّ على دعوى انَّ الآية الثانية والخمسين من سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾[1] منسوخةٌ بما ورد في الآية الخمسين من نفس السورة، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾[2].

فالآية المتقدِّمة من حيثُ النظم ناسخةٌ للآية المتأخرة على خلاف الطبع فيما بين الناسخ والمنسوخ حيث يكون المنسوخ متقدِّماً والناسخ متأخِّراً، ثم إنَّه كيف ينهى الله تعالى نبيَّهﷺ عن الزواج بغير زوجاته ثم يعود فيُبيح له التزوُّج بمَن شاء، والحال انَّ مقتضى النسخ بحسب دعوى صاحب الشبهة هو التدرُّج من التكليف باليسير إلى التكليف بما

١- سورة الأحزاب الآية/٥١.

٢- سورة الأحزاب الآية/٥٠.

هو أشق في حين انَّ المنسوخ في المقام هو الأشق والناسخ هو الأيسر حيث أُبيح فيه للنبيﷺ التزوُّج بمَن شاء من النساء بعد أنْ كان محظوراً عليه التزوُّج مطلقاً بغير زوجاته اللاتي في عهدته وقت نزول الآية. ثم إنَّ بين الحكمين الناسخ والمنسوخ تضاداً وليس بينهما تدرُّج، ففي الآية الناسخة يقول القرآن: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وفي الآية المنسوخة يقول القرآن: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾.

هذا هو حاصل ما أورده في شبهته، وهي -بقطع النظر عمَّا اشتملت عليه من مغالطات- مبنيَّةٌ على دعوى انَّ الآية الثانية والخمسين من سورة الأحزاب منسوخةٌ وانَّ الآية الخمسين من نفس السورة هي الناسخة لها.

الرّد: شرط ثبوت النسخ:

وهذه الدعوى ليست تامَّة، فهي وإنْ نُسبت إلى بعض الصحابة إلا انَّ ذلك لا يُنتج ثبوتها، لأنَّ النسخ بين آيتين لا يثبت إلا بنصٍّ القرآن بأنَّ الحكم في إحدى الآيتين ناسخٌ للحكم في الآية الأخرى، أو بنصٍّ من السنَّة الشريفة قطعي الصدور.

الشرط غير متحقّق!

وكلا الأمرين غير متحقّقٍ في المقام، فليس في القرآن ما يدلُّ على انَّ الحكم في الآية الخمسين من سورة الأحزاب ناسخٌ للحكم في الآية الثانية والخمسين من نفس السورة، ولم يرد في السنَّة الشريفة لا بأسنادٍ صحيحة بل ولا بأسنادٍ ضعيفة، وغاية ما في البين انَّه قد نُسب إلى السيدة عائشة القول بوجود النسخ بين الآيتين، وهذه النسبة لم تثبت أيضاً بأسنادٍ معتبرة، ولو سلَّمنا جدلاً بثبوتها فإنَّها ليست بحجَّة، فهي لا تعدو الإجتهاد الذي لا يكون حجَّةً إلا على من يتبنَّاه أو يعتمده.

مناقشة فيما نُسِب للسيدة عائشة

على انَّ ما نُسب للسيدة عائشة ليس هو القول صريحاً بأنَّ آية: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ناسخةٌ لآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ فما نُسب إليها هو انَّها قالت: "ما مات رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أُحلَّ الله له النساء" أو انَّها قالت: "ما تُوفي رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أُحلَّ له أن يتزوَّج من النساء ما شاء"[1]، وهذا القول ليس صريحاً في انَّها قصدت منه انَّ تحريم زواج النبي صلى الله عليه وآله بغير زوجاته قد نُسخ بآية: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ فلعلَّها قصدت انَّ الحكم

١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبري- ج٢٢ ص٤٠.

بالتحريم قد نُسخ بواسطة السنَّة كما يُشعر بذلك قولها: "ما مات رسولﷺ حتى أُحلَّ له النساء" وكما فهم ذلك من كلامها الكثيرُ من الفقهاء، وإذا ثبت انَّها قصدت نسخ الآية بالسنَّة فإنَّ خبرها ساقط عن الحجيَّة لقيام الإجماع القطعي على انَّ نسخ القرآن لايثبت بخبر الواحد وإن كان صحيح السند وإنَّما يثبت بالخبر المتواتر، ولو كانت تقصد انَّ النسخ قد وقع من طريق آية التحليل فهذا معناه انَّ آية التحليل قد نزلت بعد آية التحريم وإنْ كانت بحسب النظم في رسم المصحف الشريف واقعةً قبل آية التحريم. على انَّ يُعدُّ ذلك من نسخ القرآن بخبر الواحد بعد أنْ لم تكن آية التحليل صريحةً في انَّها متصدِّية لنسخ آية التحريم.

وكيف كان فإنَّ هذا الخبر لا يثبت به نسخ وانَّ آية التحليل ناسخةٌ لآية التحريم، فإنَّه لو ثبت انَّ هذا القول منتسِب للسيدة عائشة وثبت انَّ مقصودها هو انَّ آية التحريم نُسخت بآية: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ فإنَّ ذلك لا يعدو الإجتهاد، لأنَّها لم تُسنده للنبيﷺ، وآية التحليل ليست صريحة في التصدِّي لنسخ آية التحريم، لذلك فالمتعيَّن انَّه اجتهاد منها لأنَّها وجدت انَّ النبيﷺ يحلُّ له الزواج رغم نزول آية التحريم فاستنبطت من ذلك أنَّ آية التحليل نسخت آية التحريم مع انَّ الأمر لا يتعيَّن في ذلك كما سيتضح، فقولها إذن لا يعدو الإجتهاد الذي هو ليس

بحجةٍ إلا على مَن تبنّاه واعتمده خصوصاً وانَّ هذا الرأي لم يُؤثَر عن غير السيدة عائشة من الصحابة.

فالحكم بحليَّة تزوُّج النبيﷺ من مطلق النساء غير المحارم وإنْ كان يتبنّاه العديد من الصحابة وهو الذي أفاده أهل البيتعليهم السلام أيضاً إلا انَّ ذلك ليس مبتنياً على انَّ الحكم بالتحريم الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ قد تمَّ نسخه بآية: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ كما سيتضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

بيان المراد من آيتي التحليل التحريم

وقبل بيان الأقوال فيما هو المراد من آيتي التحليل والتحريم يكون من المناسب نقل الآيات بتمامها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ

بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾[١].

الأقوال في مراد الآيتين: الأصناف المسمّاة

القول الأول: تحليل الأصناف المسمّاة وتحريم غيرها

إنّ المراد من آيتي التحليل والتحريم هو انّ الله تعالى قد سمّى لنبيِّه صلى الله عليه وآله أصنافاً من النساء فأحلّ له الزواج من تلك الأصناف، وحرّم عليه الزواج من غير من سمّاهنّ من تلك الأصناف، فقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ معناه انّه لا يحلّ للنبي صلى الله عليه وآله من النساء غير المُسمَّيات في آية التحليل.

وبيان ذلك:

إنّ آية التحليل أفادت انّ الله تعالى قد أحلّ لنبيِّه صلى الله عليه وآله أنْ يستنكح في أصنافٍ سبعة من النساء، وهنّ كلُّ امرأةٍ دفع إليها صداقها، والإماء اللاتي أفاءَ الله بهنّ عليه أي ملكهنّ بالغنيمة والأنفال، وبنات عمِّه وبنات عمّاته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، والصنف الأخير هو كلُّ مؤمنة وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله أي انّها أبدت رغبتها في الزواج منه

١- سورة الأحزاب الآيات/٥٠-٥٢.

ولو من غير صداق، فإنَّه يحلُّ له قبولها زوجةً وإنْ شاء أرجئها أو ردَّها فلم يقبل بالتزوُّج منها.

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي لا يحلُّ لك بعد الأصناف المذكورة اللاتي تمَّ النصُّ على تحليلهن لك، ولا يحلُّ لك أنْ تستبدل زوجةً من هذه الأصناف بزوجةٍ أخرى من غير هذه الأصناف.

وقد نُسب هذا الفهم للآيات إلى الصحابي أُبي بن كعب ونُسب إلى ابن عباس في أحد قوليه وإلى عددٍ من المفسِّرين، فقد رُوي عن محمد بن أبي موسى، عن زياد، قال لأُبي بن كعب: هل كان للنبيصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لو مات أزواجه أن يتزوَّج؟ قال: ما كان يحرم عليه ذلك، فقرأتُ عليه هذه الآية: يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك قال: فقال: أحلَّ له ضرباً من النساء، وحرَّم عليه ما سواهن، أحل له كل امرأة آتي أجرها، وما ملكت يمينه مما أفاء الله عليه، وبنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته، وكل امرأة وهبت نفسها له إنْ أراد أن يستنكحها خالصة له من دون المؤمنين[1].

ورُوي عن ابن عباس قال: "نُهي رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن أصنافِ النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات قال: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ

١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبـري- ج٢٢ ص٢٦، الـدر المنثور في التفسير بالمأثور -جلال الدين السيوطي- ج٥ ص٢١١.

ولا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ ولَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ فأحلَّ له الفتيات المؤمنات وامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبيِّ وحرم كل ذات دين إلا الإسلام وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وحرَّم ما سوى ذلك من أصناف الناس"[١].

نتيجة القول الأول:

فبناءً على هذا الفهم للآيات لايكون ثمة ناسخٌ ومنسوخ، وليس بين آية التحليل وآية التحريم تنافٍ وتضاد، ذلك لأنَّ ما أُبيح للنبيﷺ الزواج منهنَّ غير اللاتي حُرِّم عليه الزواج منهن، فما أُبيح له بآية التحليل هنَّ الأصناف السبعة المذكورة، وما حُرِّم عليه هو ما عداهنَّ من أصناف النساء.

القول الثاني: تحليل النساء المسمّيات و تحريم الكافرات

إنَّ المراد من آية التحليل هو بيان ما أحلَّه الله تعالى لنبيِّهﷺ من النساء، وأما آية التحريم فهي متصدِّية لتحريم مثل اليهوديات والنصرانيات على النبيﷺ فمثلهنَّ لا يصلحن زوجاتٍ للنبيﷺ

١- تفسير القرآن العظيم -ابن أبي حاتم الرازي- ج١٠ ص٣١٧٤، الدر المنثور في التفسير بالمأثور -جلال الدين السيوطي- ج٥ ص٢١١.

فيُصبحن أُمهاتٍ للمؤمنين وهنَّ كافرات، لذلك نُهي عن الزواج منهنَّ وإنْ أعجبه حسنُهن، نعم يحلُّ له أنْ يستنكح منهنَّ بملك اليمين.

فمعنى قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾[1] هو انَّه لا يحلُّ لك الزواج من المشركات واليهوديَّات والنصرانيَّات إلا ما مَلَكتْها يمينُك، فيكون نكاحها بملك اليمين، وهذا القول ذهب إليه مجاهد وسعيد بن جبير، وعطاء، والحكَم، قالوا: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ "أي لا يحلُّ لك اليهوديَّات، ولا النصرانيَّات".

وقال مجاهد: "أي لا يحلُّ أن تتزوج كافرة فتكون أُمًّا للمؤمنين، ولو أعجبك حسنها، إلا ما ملكت يمينك، فإنَّ له أنْ يتسرَّى بها"[2] ورُوي انه قال أيضاً: "في قوله تعالى: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ يهوديَّات ولا نصرانيَّات لا ينبغي أن يكنَّ أُمهات المؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ قال: هي اليهوديَّات والنصرانيَّات لا بأس أنْ يشتريهن.

١- سورة الأحزاب الآية/٥١.

٢- معاني القرآن -النحاس- ج٥ ص٣٧٠.

ونُسب هذا القول أيضاً إلى الصحابي أبي ذر الغفاري، فقد رُوي انَّه قال في قوله تعالى: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ قال: من المشركات إلا ما سبيت فملكته يمينُك"[١].

نتيجة القول الثاني

وبناءً على هذا القول لا يكون ثمة تنافٍ بين آيتي التحليل والتحريم كما هو واضح، وذلك لتباين موضوعي الحكم بالحليَّة والحكم بالحرمة، فموضوع الحكم في قوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ هو أصناف النساء اللاتي سمَّتهنَّ الآية المباركة، وأما موضوع الحكم في قوله تعالى: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ فهو الكافرات من النساء، وبناءً على هذا القول أيضاً لا يكون الحكم في إحدى الآيتين ناسخاً للحكم في الآية الأخرى، فالآيتان محكمتان، فلا الحكم بالتحليل منسوخاَ وكذلك فإنَّ الحكم بالتحريم ليس منسوخاً.

القول الثالث: تحليل المسمّيات وتحريم الأمهات والأخوات و...

إنَّ موضوع آية التحليل هو مَن سمَّتهنَّ الآية المباركة من أصناف النساء، وأما موضوع الحرمة فهو مثل الأمهات والأخوات والبنات اللاتي

١- تفسير القرآن العظيم -ابن أبي حاتم الرازي- ج١٠ ص٣١٤٧، الدر المنثور في التفسير بالمأثور -جلال الدين السيوطي- ج٥ ص٢١٢.

ذُكرن في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[1].

وقد نُسب هذا القول إلى أهل البيت عليهم السلام فممَّا رُوي عنهم في ذلك هو مارواه الكليني بسنده عَنِ الْحَلَبِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه (ع) قَالَ سَأَلْتُه عَنْ قَوْلِ اللَّه عَزَّ وجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ قُلْتُ: كَمْ أُحِلَّ لَه مِنَ النِّسَاء قَالَ: مَا شَاءَ مِنْ شَيْءٍ قُلْتُ قَوْلَه: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ولا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ﴾ فَقَالَ: لِرَسُول اللَّه صلى الله عليه وآله أَنْ يَنْكِحَ مَا شَاءَ مِنْ بَنَاتِ عَمِّه وبَنَاتِ عَمَّاتِه وبَنَاتِ خَالِه وبَنَاتِ خَالاتِه وأَزْوَاجه اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَه وأُحِلَّ لَه أَنْ يَنْكِحَ مِنْ عُرْضِ الْمُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ مَهْرٍ وهِيَ الْهِبَةُ ولَا تَحِلُّ الْهِبَةُ إِلَّا لِرَسُول اللَّه صلى الله عليه وآله فَأَمَّا لِغَيْرِ رَسُول اللَّه صلى الله عليه وآله فَلَا يَصْلُحُ نِكَاحٌ إِلَّا بِمَهْرٍ وذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ﴾ قُلْتُ: أَرَأَيْتَ قَوْلَه: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ﴾ قَالَ مَنْ آوَى فَقَدْ نَكَحَ ومَنْ أَرْجَأَ فَلَمْ يَنْكِحْ قُلْتُ قَوْلَه: ﴿لا

١- سورة النساء الآية/٢٣.

يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ قَالَ إِنَّمَا عَنَى به النِّسَاءَ اللَّاتِي حَرَّمَ عَلَيْه فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾.."[1].

نتيجة القول الثالث

فهذا القول بناءً على ثبوت نسبته لأهل البيت عليهم السلام كسابقيه من جهة انَّ موضوع الحليَّة في آية التحليل مباينٌ لموضوع الحرمة في آية التحريم، فموضوع الحكم بالحليَّة هو أصناف النساء اللاتي سمَّتهن آية التحليل، وأما موضوع الحكم بالحرمة في آية التحريم فهو أصناف النساء المسمَّيات في الآية من سورة النساء مثل الأُم النسبيَّة والأُم الرضاعيَّة والأُخت النسبيَّة والأخت الرضاعيَّة، ومثل أُم الزوجة والربيبة المدخول بأُمها وزجة الولد.

ومع تباين الموضوعين لا يكون ثمة تنافٍ وتضاد بين آيتي التحليل والتحريم، كما انَّ الحكم في إحدى الآيتين ليس منسوخاً ولا ناسخاً للحكم في الآية الأخرى.

١- الكافي -الشيخ الكليني- ج٥ ص٣٨٨، وسائل الشيعة -الحر العاملي- ج٢٠ ص٢٦٦.

القول الرابع: تحليل النساء المعنيّات وتحريم غيرهنّ

إنّ الله تعالى أباح لنبيّه صلى الله عليه وآله التزوُّج من أصنافٍ من النساء ذكرها في آية التحليل، لذلك فإنّ النبي صلى الله عليه وآله قد تزوَّج من هذه الأصناف بمن شاء وبقي على ذلك ردحاً من الزمن، ثم إنّ عدداً من نساء النبي صلى الله عليه وآله بعد غزوة خيبر طالبنه من النفقة بأكثر ممّا يُطيق فاغتمّ لذلك فأمره الله تعالى بأنْ يُخيِّرهنّ جميعاً بين البقاء في عهدته والصبر على ضنك المعيشةِ معه وبين تسريحهنّ سراحاً جميلاً أي تطليقهن كما ورد ذلك في قوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] فاختار جميعُ نسائه التسع اللاتي كنّ في عهدته البقاء معه والصبر على ضيق المعاش، فحينئذٍ أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وآله بعدم الزواج من غيرهن وعدم تطليقهنّ أو تطليق إحداهنّ واستبدالها بأخرى مكافئةً لهنّ على اختيار البقاء مع الرسول صلى الله عليه وآله والصبر معه على ضيق المعاش[2].

١- سورة الأحزاب الآيتان/٢٨-٢٩.

٢- تفسير مجمع البيان -الشيخ الطبرسي- ج٢ ص١٧٦، جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبري- ج٢٢ ص٣٥.

وعليه فقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ معناه من بعد أزواجك التسع اللاتي في عهدتك، فلا يحلُّ لك انْ تزداد عليهنَّ كما لا يحلُّ لك أنْ تُطلِّقهنَّ أو تُطلِّق إحداهنَّ وتستبدل بها زوجةً أخرى.

نتيجة القول الرابع

وبناءً على هذا القول لا يكون ثمة تنافٍ أيضاً بين آية التحليل وآية التحريم، إذ انَّ الأولى كانت بصدد بيان ما أُحلَّ للنبيﷺ من أصناف النساء، وهذا الحكم ظلَّ محكماً غير منسوخ، ولذلك تزوَّج النبيﷺ من الأصناف المذكورة بمَن شاء، ثم نزلت بعد ردحٍ من الزمن آية التحريم، فكان مفادها تحريم النساء على النبيﷺ غير اللاتي كنَّ في عهدته، فمَن تزوَّجهنَّ النبيﷺ لآية التحليل لم يحرمن عليه بعد آية التحريم وإنَّما حرم عليه بآية التحريم أنْ يتزوَّج بسواهن، ومآل الجمع بين الآيتين هو انَّ آية التحريم قيَّدت الإطلاق المستَظهَر من آية التحليل، إذ انَّ ظاهرها هو انَّ للنبيﷺ الزواج بأيٍّ عددٍ من تلك الأصناف المذكورة، فكان مقتضى آية التحريم هو تقييد هذا الإطلاق من جهة العدد.

لا محذور هنا في القول بالنسخ

ولو سلَّمنا انَّ في البين نسخاً فإنَّ آية التحريم هي الناسخة لآية التحليل ولا محذور في قبول ذلك، فيُلتزم انَّه بعد أنْ كان للنبيﷺ التزوُّج بأيٍّ عددٍ شاء من نساء الأصناف المذكورة جاءت آية التحريم فصار التزوُّج -بمعنى الاستزادة- حتى من الأصناف المذكورة محظوراً على النبي الكريمﷺ.

وعليه فإنَّ هذا القول حتى لو سلَّمنا بأنَّ مآله البناء على وجود النسخ بين آيتي التحليل والتحريم إلا انَّ المنسوخ بناءً عليه هو آية التحليل خلافاً لما ادعاه صاحب الشبهة من انَّ آية التحليل هي الناسخة لآية التحريم.

وأما ورود الآيتين في موضعٍ واحد فذلك لا ينفي انَّ وقت نزولهما مختلف، فإنَّ آيات القرآن لم تنزل جملةً واحدة كما هو معلوم، وكما صرَّح القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[1].

١- سورة الفرقان الآية/٣٢.

ويبقى الإشكال على هذا القول لو قيل باستلزامه لوجود النسخ هو إثبات دعوى النسخ، إذ انَّ دعوى النسخ لا تثبت إلا بنصٍ القرآن أو بنصٍ ثابتٍ من السنَّة الشريفة، وذلك هو ما ادعاه القائلون بهذا القول.

وحيث انَّنا لسنا بصدد تقييم الأقوال وإنَّما بصدد تفنييد دعوى التضاد بين آيتي التحليل والتحريم لذلك لا نجد حاجةً للتثبُّت من صحة دعوى النسخ لكنَّه لو ثبتت فإنَّ غايتها انَّ آية التحليل قد نُسخ حكمها بعد العمل به ردحاً من الزمن، ولا ريب في وقوع أصل النسخ في الشريعة والبرهان قائمٌ على ذلك، وقد حُرِّر في محله.

خلاصة الأقوال الأربعة

والمتحصَّل مما ذكرناه انَّه لا تنافي بين آيتي التحليل والتحريم، وذلك لأنَّ موضوع الحكم في آية التحليل مباينٌ لموضوع الحكم في آية التحريم بناءً على الأقوال الثلاثة الأولى، وأما بناءً على القول الرابع فآية التحريم مقيِّدة للإطلاق في آية التحليل ومضيِّقة من حيث العدد لدائرة ما يحلُّ للنبي ﷺ التزوُّج منهن، وحتى مع الإلتزام بوقوع النسخ فإنَّه لا تنافي بين الآيتين، وذلك لأنَّ المراد من النسخ هو رفع الحكم بانتهاء أمده، فيكون إثبات الحكم الآخر لذات الموضوع قد تحقَّق بعد ارتفاع الحكم الأول لا انَّ الحكمين ثابتان للموضوع الواحد في زمانٍ واحد حتى يُدَّعى انَّ ذلك من التناقض أو التضاد بل انَّ الحكم بحرمة التزوُّج

من الأصناف المذكورة لم يثبت إلا بعد ارتفاع الحكم بالحليَّة بانتهاء أمده، فذلك هو معنى النسخ كما هو مقرَّر في محلِّه، فشأن النسخ شأن الحكم على أحدٍ بالحبس ثم الحكم بحريته بعد انتهاء المدة المقرَّرة لحبسه، والمدة المقررة قد لا يُصرِّح بها القاضي للمحكوم عليه لمصلحة يرتئيها، وعلى أيٍّ تقدير فالحرية والحبس حكمان متضادان يستحيل اجتماعهما على موضوعٍ واحد في زمانٍ واحد، ولكنَّه لا يستحيل توارد حكمين متضادين على موضوعٍ واحد مع اختلاف زمن ورود كلٍّ منهما على الموضوع، فلا محذور في الحكم على أحدٍ بالحبس ثم بعد زمن يحكم له بالحرية.

وكذلك هو الحال في المقام، إذ انَّ الحكم بحليِّة التزوُّج في الأصناف المذكورة كان قد ثبت للنبيِّ ﷺ أولاً ثم بعد ردحٍ من الزمن وبعد أنْ عمل النبيُّ ﷺ بالحكم فتزوَّج بمَن شاء من الأصناف المذكورة بعد ذلك ارتفع الحكم بالحليَّة لانقضاء مدَّته وثبت لذات الموضوع حكمٌ آخر هو حرمة التزوُّج من هذه الأصناف، ففي الزمن الأول لم يكن في البين إلا حكمٌ واحد وهو حليَّة الزواج في الأصناف المذكورة، وفي الزمن الثاني لم يكن إلا حكمٌ واحد وهو حرمة التزوُّج في الأصناف المذكورة، فلم يجتمع الحكمان في زمانٍ واحد، فأين هو التنافي إذن بين الحكم بالحليَّة والحكم بالحرمة؟!!

وبناءً على هذا القول لا يرد أيضا ما ذكره صاحب الشبهة من ان الآية الناسخة وردت قبل الآية المنسوخة، فإنّ المنسوخ بناءً على هذا القول هو آية التحليل والناسخ هو آية التحريم، فالمنسوخ ورد أولاً في الآية الخمسين من سورة الأحزاب والناسخ ورد ثانياً في الآية الثانية والخمسين.

وأما ورود الناسخ والمنسوخ في موضعين متقاربين فذلك لا يعني أنّهما نزلا في وقتٍ واحد كما بيَّنا ذلك فيما سبق.

إيرادات على الشبهة:

وبما ذكرناه يتضح انّ ما أورده صاحب الشبهة من إشكالات لو تمَّت فهي إنما ترد على قولٍ من الأقوال في تفسير الآيتين، ولا ترد على القرآن الكريم نفسه كما أراد أنْ يُوهم بذلك، على انّ ما أورده من إشكالاتٍ على هذا القول ليس فيها ما هو تام حتى وإنْ لم نكن نرتضي هذا القول، فهو قد أورد على هذا القول إيراداتٍ ثلاثة كلُّها ساقطة:

الإيراد الأول: دعواهُ التضاد والتناقض بين آية التحريم وآية التحليل لمجرَّد القول بأنّ آية التحليل كانت ناسخة لآية التحريم، فكان الزواج محرَّماً على النبي صلى الله عليه وآله بغير مَن كنَّ في عهدته ثم أُبيح له الزواج بغيرهنَّ بآية التحليل، فإنَّه سمى ذلك تناقضاً!! والحال انَّه قد قلنا انَّ النسخ معناه ارتفاع الحكم الأول عن موضوعه بانتهاء أمده، فيكون جعل الحكم

الثاني علي ذات الموضوع قد وقع بعد ارتفاع الحكم الأول فأين التناقض والحال انَّ الحكم الأول حينما كان ثابتاً لموضوعه لم يكن الحكم الثاني مجعولاً، وحينما جُعل الحكم الثاني على ذات الموضوع كان الحكم الأول قد ارتفع فلم يعُد ثابتاً على موضوعه، أي حينما كان الحكم بحرمة تزوُّج النبيصلى الله عليه وآله بغير زوجاته ثابتاً لم يكن الحكم بحليَّة التزوُّج من غيرهنَّ موجوداً، وحينما أصبح الحكم بالحليَّة مجعولاً كان الحكم بالحرمة قد ارتفع، فالحكمان وإنْ كانا قد تواردا على موضوعٍ واحد ولكن ذلك قد وقع في زمانين مختلفين كما هو الشأن في كلٍّ موارد النسخ.

الإيراد الثاني: دعواه انَّ الحكم المنسوخ وقع متأخراً عن الحكم الناسخ، لأن الحكم المنسوخ ورد في آية التحريم وهي الآية الثانية والخمسين من سورة الأحزاب، والحكم الناسخ ورد في آية التحليل وهي الآية الخمسين من نفس السورة، وذلك معناه انَّ نسخ الحكم بالتحريم وقع قبل صدوره أو انَّ الحكم بالتحريم قد تمَّ جعله ونسخه في عرضٍ واحد لو كان كلٌّ من الآيتين قد نزلتا في عرضٍ واحد.

وهذا الإيراد ساقط أيضاً فهو مبتنٍ على توهُّم انَّ الآية السابقة بحسب رسم المصحف الشريف تكون سابقة بحسب النزول في حين انَّ من الواضح هو عدم الملازمة بين ورود الآية بحسب رسم المصحف أولاً

وبين تقدُّمها من حيث النزول، فكثيراً ما يتَّفق أنْ تكون الآية سابقة بحسب الرسم ولكنَّها متأخِّرة بزمنٍ طويل بحسب النزول، فقد يتفق أنْ تكون المتقدِّمة بحسب الرسم قد نزلت في السنة الأخيرة من حياة النبي ﷺ وتكون المتأخِّرة بحسب الرسم قد نزلت في أوائل المبعث النبوي أو الهجرة إلى المدينة، ولذلك تجد انَّ سورة تكون مدنيِّة في صدرها ثم تتخللها آيات مكيَّة ثم تلي هذه الآيات آياتٌ أخرى مدنيَّة، فنظم الآيات وكذلك نظم السور في المصحف الشريف لم يُراع فيه الترتيب من حيث وقت النزول، فلم يكن النازل أولاً هو المدوَّن أولاً.

وعليه فالقائل بأنَّ آية التحريم منسوخة وانَّ آية التحليل ناسخة لابد وانه يرى انَّ آية التحريم نزلت أولاً وانَّ نزول آية التحليل قد تأخَّر عن نزول آية التحريم بزمنٍ ليس بالقصير، فالاستغراب الذي أبداه صاحب الشبهة إمَّا انْ يكون قد نشأ عن الجهل بكيفيَّة رسم المصحف الشريف أو انَّه تعمد التضليل والإيهام لمن لا علم له بالكيفيَّة التي بُني عليها رسم المصحف الشريف.

الإيراد الثالث: دعواه انَّ النسخ إنَّما يكون للحكم الأيسر للانتقال منه إلى حكمٍ أشق بعد أنْ يكون المكلَّف قد بلغ من اللياقة ما يُؤهله لامتثال التكليف بالأشق.

وهذه الدعوى جزافيَّة ليس عليها من دليل، فالبرهان القائم على إمكان النسخ في الشريعة الإسلامية والشرائع السابقة لا يقتضي تحديد ما يقع عليه النسخ بما ادَّعاه، فمنشأ النسخ هو انَّ أحكام الله تعالى تابعة للمصالح والمفاسد، بمعنى انَّ جعل الحكم من وجوبٍ أو حرمةٍ أو إباحة ينشأ عن مصلحةٍ شديدة -في متعلَّق الحكم بالوجوب- اقتضت إيجابه أو مفسدة شديدة -في متعلَّق الحكم بالحرمة- اقتضت تحريمه أو مصلحة اقتضت إباحة المتعلَّق"الفعل"، وهذه المصلحة أو المفسدة قد تكون في علم الله دائمة وملازمة للمتعلَّق، وقد تكون مؤقتة، ففي فرض دوامها فإنَّ الحكم لا يُنسخُ أبداً، وأما في فرض كون المصلحة أو المفسدة مؤقتة فإنَّ الحكم الناشئ عن المصلحة يرتفع بانتفاء المصلحة، والحكم الناشئ عن المفسدة يرتفع بانتفاء المفسدة، ويتحدَّد الحكم الآخر بعدئذٍ بما يكون عليه المتعلَّق والموضوع، فقد يتَّفق أنْ يكون الفعل بعد أنْ كان واجدًا للمصلحة ردحاً من الزمن يُصبح بعد ذلك فاقداً لكلِّ مصلحة وحينئذٍ يرتفع عنه الوجوب ولكن لا تثبت له الحرمة بل يُصبح مباحاً بعد أنْ كان واجباً، وقد يتَّفق صيرورة الفعل ذي المصلحة الشديدة الملزمة فعلاً يترتَّب على الإتيان به مفسدةٌ شديدة فحينئذٍ يُصبح محرَّماً بعد أنْ كان واجباً، وقد يكون الفعل مباحاً لعدم ترتُّب مفسدة أو مصلحة على فعله أو انَّ المصلحة المترتِّبة على فعله ليست شديدة ثم بعد زمنٍ يُصبح هذا الفعل شديد المفسدة، وحينئذٍ ينقلبُ حكمه من

الإباحة إلى الحرمة، وهكذا فإنَّ الحكم اللاحق "الناسخ" تتحدَّد طبيعته بحدود ما تقتضيه المصلحة أو المفسدة التي عرضت على متعلَّقه "الفعل"، فإذا انتفت المفسدة الملزِمة عن الفعل فإنَّه لا يُمكن الحكم بِبَقاء الحرمة لأنَّ معنى ذلك هو عدم تبعيَّة الأحكام للمصالح والمفاسد في متعلَّقاتها وجوداً وعدماً، لذلك لابدَّ من جعل الإباحة على الفعل بعد أنْ أصبح فاقدًا للمفسدة الشديدة، وهكذا فإنَّ المصلحة الشديدة إذا انتفت عن الفعل "المتعلَّق" فإنَّه لا يُمكن الحكم ببقاء الوجوب بل لابدَّ من الانتقال منه إلى الحكم بالإباحة رغم انَّ الانتقال في الفرضين كان من الأشق إلى الأيسر.

نماذج من نسخ الحكم الأشقّ:

هذا وقد ثبت انَّ عدداً من موارد النسخ على قلَّتها في الشريعة قد تمَّ فيها نسخُ الحكم الأشق والانتقال منه إلى الحكم الأيسر، ونذكر لذلك نموذجين:

النموذج الأول: كان الصوم في أول فرضه على الناس في شهر رمضان يبدأ من حين الشروع في النوم بعد صلاة العشاء، ويمتدُّ إلى

غروب اليوم الثاني[1]، فلا يجوز للمكلَّف أنْ يتناول الطعام أو يُعاشر زوجته لو استيقظ من نومه ليلاً بل يجب عليه الإمساك عن المفطِّر إلى حين الغروب من اليوم الثاني ثم نُسخ هذا الحكم وصار مبدأ وجوب الصوم هو طلوع الفجر ومنتهى وقت الوجوب هو الغروب، فيجوز للمكلِّف تناول الطعام ومعاشرة زوجته في أيٍّ آنٍ من آنات الليل، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إلى اللَّيْلِ﴾[2] فالحكم المنسوخ في المثال هو الأشق، والحكم الناسخ هو الأيسر، فكان تناول الطعام ومعاشرة الزوجة محرَّماً ليلاً في شهر رمضان ثم أصبح مباحاً.

١- تفسير مجمع البيان -الشيخ الطبرسي- ج٢ ص١٩-٢٢، وسائل الشيعة -الحر العاملي- ج١٠ ص١١٣، جامع البيان عن تأويل آي القرآن -محمد بن جرير الطبري- ج٢ ص٢٢٤، تفسير القمي -علي بن إبراهيم القمي- ج١ ص٦٦.

٢- سورة البقرة الآية/١٨٧.

النموذج الثاني: انَّ الله تعالى فرض على المؤمنين التصدُّق على الفقراء كلَّما أرادوا مناجاة النبيﷺ وسؤاله إلا مع العجز[١] عن ذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢] ثم إنَّ هذا الحكم نُسخ بقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣] فالحكم بوجوب الصدقة قد نُسخ وأصبح التصدُّق على الفقراء قبل سؤال النبيﷺ غير واجبٍ بعد ان كان واجباً، فالحكم المنسوخ كان هو الأشق والحكم الناسخ كان هو الأيسر.

نسخ الحكم الأشق في التوراة و الإنجيل!

ثم إنَّه يمكن النقض على دعوى انَّ النسخ لا يكون إلا من التكليف بالأيسر إلى التكليف بالأشق بما وقع من نسخ في العهدين القديم

١- المستدرك على الصحيحين -الحاكم النيسابوري- ج٢ ص٤٨٢، السنن الكبرى -النسائي- ج٥ ص١٥٣، تفسير مجمع البيان -الشيخ الطبرسي- ج٩ ص٤١٧.

٢- سورة المجادلة الآية/١٢.

٣- سورة المجادلة الآية/١٣.

والجديد، وهما التوراة والإنجيل المعتمدان عند المسحيين ويُعبِّرون عن مجموعهما بالكتاب المقدس، ونكتفي في المقام بالإشارة إلى موردين:

المورد الأول: هو انَّ عدداً من الحيوانات البريَّة والبحريَّة والطيور كانت محرَّمة ومحكومة بالنجاسة في التوراة ثم انَّها أُبيحت في الإنجيل، فقد ورد في العهد القديم من الكتاب المقدس في الإصحاح الحادي عشر من سفر اللاويين: انَّ كلَّ حيوانٍ له ظلف غير مشقوق فهو نجس محرَّم أو له ظلف مشقوق ولكنَّه لا يجتر فهو نجس محرَّم، ولذلك فالأرنب والخنزير محرَّمان، فالأول ليس له ظلف مشقوق، والثاني لا يجتر وإنْ كان له ظلفٌ مشقوق، وقد تمَّ النصُّ في الإصحاح الحادي عشر من سفر اللاويين أيضاً على حرمة ابن عرس والفار والضب على أجناسه والحرذون والورل والوزغة والعظاية والحرباء، ومن حيوانات البحر كلُّ ماليس له زعانف وحراشف، ومن الطيور النسر والأنوق والعقاب والحدأة والباشق على أجناسه وكلُّ غراب على أجناسه والنعامة والظليم والسأف والباز على أجناسه والبوم والغواص والكركي والبجع والقوق والرخم واللقلق والببغا على أجناسه والهدهد والخفاش.

فهذه الحيوانات والطيور كلُّها محرمة في العهد القديم ولا زال اليهود ملتزمين بحرمتها وقد نُسخت في العهد الجديد، ولذلك فالنصارى

ملتزمون بحلِّيتها، لاحظ إنجيل متَّى الإصحاح الرابع عشر ولاحظ سفر أعمال الرسل.

المورد الثاني: إنَّ من المعلوم انَّ ختان الذكور كان واجباً وانَّه كان شريعة مفروضة من الله تعالى على إبراهيم فرضاً أبديًّا كما نصَّ على ذلك العهد القديم في الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين وفي سفر اللاويين في الإصحاح الثاني عشر: كلَّم الربُّ موسى بذلك، ثم انَّه تمَّ نسخ هذا الحكم، كما نصَّ على ذلك العهد الجديد في الرسالة إلى رومية من سفر أعمال الرسل، فصار الختان مباحاً بعد انْ كان مفروضاً وعهداً أبديًّا من الله جل وعلا كما في العهد القديم.

ففي هذين الموردين كان النسخ فيهما للتكليف بالأشق لا بالأيسر، فالكثير من الحيوانات كانت محرمة في العهد القديم ثم أصبح الإنسان في سعةٍ من جهتها، حيث أُبيح له تناول ما شاء منها، وكذلك كان الختان مفروضاً ثم أصبح المؤمن بالعهدين في سعة، فله أنْ يختتن ويختن أولاده وله ان لا يختتن، ولا ريب انَّ الإلزام أشقُّ من الإباحة، هذا وثمة موارد عديدة من هذا القبيل في العهدين أعرضنا عن ذكرها خشية الإطالة، راجع كتاب الهدى إلى دين المصطفى للشيخ محمد جواد البلاغي.

والحمد لله رب العالمين

الشبهة الواحدة والأربعون

تمحيص الله لعباده لا ينفي علمه بواقعهم

الشبهة الواحدة والأربعون

تمحيص الله لعباده لا ينفي علمه بواقعهم

آلهة القرآن تبتلي البشر وتُصيبها بالقروح والجروح لتعلم، إذن علمها ناقص يحتاج لامتحان وزمن، والدليل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1] وقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[3].

١- سورة محمد الآية/٣١.

٢- سورة آل عمران الآية/١٤٠.

٣- سورة البقرة الآية/١٤٣.

الجواب

تحصيلُ العلم غير مرادٍ قطعاً:

ليس المراد من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[1] ليس المراد من مثل هذه الآيات ما توهَّمه صاحب الشبهة من الله جلَّ وعلا يجهل بواقع عباده فهو يمتحنهم ويبتليهم ليعلم بما هم عليه من واقعٍ كان مجهولاً عنده، إنَّ هذا المعنى ليس هو المراد من هذه الآيات قطعاً.

فإنَّ القرآن الكريم مليء بالآيات الصريحة والواضحة في إفادة انَّ الله تعالى يعلم من عباده ما يُسرُّون وما يُعلنون، ويعلم من أقوالهم وأفعالهم ما يتجاهرون بها وما يتكتَّمون عليها، ويعلم بمَن هو المصلحُ من عباده ومَن هو المفسد، ويعلم ما تُكنُّه صدورهم من خطَراتٍ وهواجسَ وأفكارٍ وعزائم، وما يُضمرونه من حبٍّ وبغض وكيدٍ وحسدٍ وحزنٍ

١- سورة الحديد الآية/٢٥.

وابتهاج، وما تنطوي عليه قلوبُهم من إيمانٍ أو كفرٍ أو نفاق، وهو كذلك يعلم بدقائق ماكان عليه ماضيهم وبما عليه حاضرهم ويعلم بمصائرهم، وليس ذلك وحسب بل أفادت الآيات انَّه تعالى يعلم بما في السماوات وما في الأرض من خطير خلقه وحقيره، ويعلم بما ينزل من السماء وما يعرج فيها وما يلج في الأرض وما يخرج منها، فكلُّ خلق الله تعالى من الملائكة والجنِّ والإنس والطير والدوابِّ والنبات والجماد ما خطُر منه وما حقُر، وما دقَّ منه وما جل، وما كان مرئياً وما ليس بمرئي فإنَّ الله تعالى يعلم بوجوده ومقداره ومقرِّه ومستودعه ومآله وأحواله ووظائفه، فما يعزبُ عنه من مثقال ذرةٍ أو دونها في الأرض ولا في السماء، كلُّ ذلك أفادته الآيات وصرَّحت به وأوردته بصيغٍ متعددة.

وللتثبُّت ممَّا ذكرناه نتيمَّن بنقل بعض هذه الآيات:

أولاً: الآيات التي أفادت أنَّ الله تعالى بكلِّ شيءٍ عليم: وهي آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

١- سورة المائده الآية/٩٧.

ومنها: قوله تعالى ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣).

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(٤).

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾(٥)

ومنها: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

١- سورة الحجرات الآية/١٦.

٢- سورة التغابن الآية/١١.

٣- سورة الحجرات الآية/١٦.

٤- سورة فصلت الآيتان/٥٣-٥٤.

٥- سورة الملك الآية/١٩.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٤].

ومنها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٦].

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[١].

١- سورة البقرة الآية/٢٩.

٢- سورة الانبياء الآية/٨١.

٣- سورة الحج الآية/١٧.

٤- سورة يس الآية/٧٩.

٥- سورة الفرقان الآية/٦.

٦- سورة سبأ الآية/٣.

فهذه الآيات صريحةٌ في شمول علم الله تعالى واستيعابه لكلٍّ شيء وإنْ دقَّ فكان دون الذرَّة أو جلَّ فكان بحجم السماوات والأرض أو ظهر كما هو هذا الكون الواسع أو خفيَ فكان من مكنون الغيب.

ثانياً: الآيات التي أفادت أنَّ الله تعالى يعلم بمقادير الأشياء وإنْ دقَّت وأعدادها وأحوالها وآجالها: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٤].

١- سورة لقمان الآية/١٦.

٢- سورة الرعد الآية/٨.

٣- سورة لقمان الآية/٣٤.

٤- سورة الحج الآية/٧٠.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢]

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[٤].

١- سورة الأنعام الآيتان/٥٩-٦٠.

٢- سورة يونس الآية/٦١.

٣- سورة سبأ الآية/٢.

٤- سورة الشورى الآية/٢٧.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

هذه الآيات فصَّلت ما كانت قد أوجزته الآيات الأولى، فأفادت انَّ الله تعالى يعلم ما تحمله كلُّ أنثى من بني الإنسان والحيوان، ويعلم عن الوقت الذي ستضع فيه كلُّ أنثى حملها، وهو يعلم بكلٍّ ما في الغيب وبكلٍّ ما هو في عالم الشهود، وليس من شيءٍ من الأحياء والجمادات في البرِّ والبحر إلا وهو تعالى يعلم به تفصيلاً، فلا تسقط ورقةٌ من شجرةٍ ولا حبة في ظلمات الأرض ما هو مأهولٌ منها وما هو غير مأهول، وليس من رطبٍ في هذا الكون ولا يابسٍ إلا وهو يعلمه، وهو في كتابٍ مبين أي هو مقدَّر عنده مرصودٌ في علمه.

ثم إنَّه تعالى يعلم ما يجترحه عبادُه وقد قضى لهم آجالاً سمَّاها لهم وقدَّرها عليهم، وهو كذلك يعلم ما يلج في باطن الأض من مقادير المياه وأعداد الدواب وأصنافها والبذور وعروق الأشجار وغير ذلك من الأجسام، ويعلم ما ينزل من السماء من ملائكته وسكَّانِ سماواته وما يهبط منها من شهبٍ ونيازك، ويعلم مقدار ما ينزل من أمطار، وكذلك هو يعلم بما يعرج إلى السماء من ملائكةٍ وأرواحٍ وأصواتٍ ودعواتٍ وابتهالات وغير ذلك.

١- سورة الفرقان الآية/١١.

ثالثاً: الآيات التي أفادت أنّ الله تعالى يعلم بكلٍّ أفعال العباد وأقوالهم: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٤].

ومنها: قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٥].

١- سورة الرعد الآية/٤٢.

٢- سورة الأنعام الآية/٦٠.

٣- سورة لأنعام الآية/٣.

٤- سورة التوبة الآية/ ٧.

٥- سورة طه الآيتان/٦-٧.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾[٦].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٧].

١- سورة الانبياء الآية/١١٠.

٢- سورة محمد الآية/٣٠.

٣- سورة آل عمران الآية/١٢٠.

٤- سورة آل عمران الآية/٩٨.

٥- سورة الحجرات الآية/١٨.

٦- سورة الأعلى الآية/٧.

٧- سورة البقرة الآية/٢٣٤.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٣).

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٤).

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ

١- سورة سبأ الآية/٢.

٢- سورة يونس الآية/٦١.

٣- سورة الزلزلة الآيتان/٧-٨.

٤- سورة المجادلة الآية/٦.

سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

فهذه الآيات كما تلاحظون صريحةٌ في انَّ الله تعالى يعلم بكلٍّ ما يفعله العباد من ملائكةٍ وجنٍّ وإنس بل وكلِّ نفس، ولا يخفى عليه من أفعالهم فعلٌ وإنْ كان حقيراً لا يُعبأ به ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وكذلك هو يعلم بكلِّ أقوالهم وإنْ أسرُّوا بها بل وإنْ كانت بنحو حديث النفس: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾(٣) فهو يحصي كلَّ ذلك عليهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٤).

رابعاً: الآيات التي أفادت أنَّ الله تعالى يعلم ببواطن عباده: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٥).

١- سورة المجادلة الآية/٧.

٢- سورة الأنبياء الآية/٤.

٣- سورة الأنبياء الآية/٤٤.

٤- سورة المجادلة الآية/٧.

٥- سورة البقرة الآية/٧٧.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٤].

ومنها: قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[٥].

ومنها: قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[٦].

١- سورة محمد الآية/٢٦.

٢- سورة الأحزاب الآية/٥١.

٣- سورة البقرة الآية/٢٢٠.

٤- سورة البقرة الآية/٢٣٥.

٥- سورة المائدة الآية/٩٨.

٦- سورة المائدة الآية/٩٩.

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٣).

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾(٤).

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٥).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(٦).

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٧).

١- سورة هود الآية/٥.

٢- سورة القصص الآية/٦٩.

٣- سورة غافر الآية/١٩.

٤- سورة يوسف الآية/٥٠.

٥- سورة التغابن الآية/٤.

٦- سورة ق الآية/١٦.

٧- سورة آل عمران الآية/١١٩.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٣].

الأسرار التي يحرص الإنسان على كتمها عن أقرب المقرَّبين، والمعتقدات التي تنطوي عليها القلوب ونزغات الشيطان وهواجس النفس وتقلُّباتها وخطَرات الأفكار وكمائن الصدور وما تستبطنها من محبةٍ ورحمة أو ضغينةٍ وقسوة أو حزنٍ أو ابتهاج وما أشبه ذلك، كلٌ ذلك يعلمه الله تعالى فهو: ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٤].

خامساً: الآيات التي أفادت أنّ الله تعالى يعلم بأحوال عباده وماضيهم ومستقبلهم: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا

١- سورة الأعراف الآية/٢٠٠.

٢- سورة المائدةالآية/١٦٦.

٣- سورة التوبة الآية/٧٨.

٤- سورة ق الآية/١٦.

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(٣).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾(٤).

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٥).

١- سورة البقرة الآية/٢٥٥.

٢- سورة طه الآية/١١٠.

٣- سورة الحج الآية/٧٥.

٤- سورة محمد الآية/١٩.

٥- سورة لقمان الآية/٣٤.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١).

ما لكم كيف تحكمون؟!

هذه بعض الآيات التي تصدَّت لبيان سعة علم الله تعالى واستيعابه، وهي موزَّعةٌ على سور القرآن، وما أغفلنا ذكره منها أكثر مما أوردناه، وهي كما تلاحظون صريحةٌ في كمال علم الله تعالى وشموله لكلٍّ شيء وإنْ دقَّ فكان دون الذرَّة أو جلَّ فكان بسعة السَّماوات والأرض، وهي صريحةٌ في انَّ علمه تعالى لا يختصُّ بالمحسوسات والمشهودات بل هو شاملٌ للمغيَّبات فهو عالمُ الغيب والشهادة، وكلُّ مفاتيح الغيب عنده ومن تدبيره، ولا يختصُّ علمه بما مضى وبما عليه الحال بل هو عالمٌ بكلٍّ مآلات الأمور وخواتيمها، ويعلم بتصرُّفات النفوس وتقلُّباتها وهواجسها وما استقرَّت عليه وأذعنت له وما جحدته وتنكَّرت له، وما كانت منه في حيرة وتردُّد، وهو يعلم بالنفوس المُثقلة بالكفر أو النفاق أو الشرك والمُثقلة بالأحقاد والأضغان والحسد والكيد والخيانة والاستكبار والعجب، ويعلم بالنفوس الطاهرة والطيبة والصافية من الأكدار والمستنيرة بالهدى، فهو يعلم مَن هو المصلح من المفسد لأنَّه عليمٌ بذات الصدور، فإذا كان جلَّ وعلا كذلك والآيات صريحةٌ في ذلك

١- سورة الملك الآية/١٣.

فكيف يسوغ لمنصفٍ يحترم عقله أنّ يغضّ الطرف عن هذا الكم الوافر من الآيات رغم صراحتها ثم يُفسِّر مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1] بأنّ الله لا يعلم بمَن هم المجاهدون والصابرون لذلك فهو يبتلي العباد ليتميَّز عنده المجاهدون والصابرون من غيرهم ؟!

الشبهة مخالفة لمسلك العقلاء:

إنّ هذا النحو من التفسير سلك غير مسلك العقلاء واعتمد غير أصولهم، فالعقلاء وأهلُ المحاورة إذا وقفوا على خبرين لمتكلمٍ واحد وكان أحد الخبرين قد تكرَّر منه كثيراً بصيغٍ متعدِّدة، وكان مضمونه من الوضوح بحيث لا يشك أحدٌ في مراده منه، وكان الخبر الآخر له ظهور بدوي فيما يُنافي الخبر الأول ولكنَّه يحتمل معنىً آخر لا يُنافي الخبر الأول الذي كان قد تكرَّر منه كثيراً وكان صريحاً في المراد، فالعقلاء وأهل المحاورة في مثل هذا الفرض يحملون الخبر الثاني على المعنى الذي لا يُنافي الخبر الأول، فهم لا يغضُّون الطرف عن الخبر الأول بل يجعلون منه قرينةً قطعيَّةً على انّ المراد من الخبر الثاني ليس هو المعنى المستظهَر بدْواً منه وإنَّما هو المعنى غير المنافي للخبر الأول.

١- سورة محمد الآية/٣١.

مثالٌ للتوضيح:

فحينما يخرج الوزير الأول للناس وينعى السلطان ويُخبر عن انَّه قد مات ثم يُخبر في ذات المجلس أو غيره انَّ السلطان قد مات إثر وعكةٍ صحيَّةٍ ألمَّت به، ويُخبر كذلك في موضعٍ آخر انَّ السلطان قد أوصى قبل موته بكذا وصية، ويُخبر انَّه فرغ من دفنه في مسقط رأسه، ويُخبر كذلك انَّه يستقبل العزاء بموت السلطان عصراً، ثم يُعلن الحداد لموت السلطان ثلاثة أيام، بعد كلِّ هذه الإخبارات بموت السلطان لو قال الوزير الأول في بعض مجالسه أو أحد خطاباته: إنَّ السلطان لم يمت، فهل يأخذ العقلاء بظاهر الخبر الثاني ويغضُّون النظر عن وضوح الخبر الأول وتكثُّره وبذلك يتَّهمون الوزير الأول بالكذب في أحد الخبرين أو انَّهم يحملون الخبر الثاني على معنىً لا يُنافي الخبر الأول أي انَّهم يجعلون الخبر الأول قرينةً على إرادة المعنى المجازي من الخبر الثاني فيبنون على انَّه أراد من قوله انَّ السلطان لم يمت هو انَّ اسمه مثلا سيبقى حاضراً في ذاكرة رعيَّته لأنَّه كان كثير الإحسان إليهم.

تطبيق مسلك العقلاء في المقام:

والأمر كذلك في المقام فقد أخبر القرآن الكريم انَّ الله تعالى بكلِّ شيءٍ عليم وبكلِّ شيءٍ محيط وبكلِّ شيءٍ بصير وعلى كلِّ شيءٍ شهيد، وانَّه يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم السرَّ في السماوات والأرض، وانه لا

يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وانَّه عالمُ الغيب والشهادة، وانَّ كلَّ مفاتيح الغيب عندَه، وانَّه يعلم ما تكسب كلُّ نفسٍ من خيرٍ أوشر ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٤) ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٥) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾(٦) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٧) وقد أخبر عن المنافقين المتكتِّمين على نفاقهم بقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾(٨)

١- سورة الأنعام الآية/٣.

٢- سورة محمد الآية/٣٠.

٣- سورة الحجرات الآية/١٨.

٤- سورة المجادلة الآية/٦.

٥- سورة البقرة الآية/٧٧.

٦- سورة محمد الآية/٢٦.

٧- سورة البقرة الآية/٢٢٠.

٨- سورة التوبه الآية/١٠١.

وقال في موردٍ آخر: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾(١) وقال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله في شأن الأسرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾(٢) وقال مخاطباً النبي صلى الله عليه وآله وزوجاته وعموم المؤمنين: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾(٣) وقال تعالى لعموم عباده: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٥) وقال جلّ وعلا: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٦) وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٧).

١- سورة التوبة الآية/٦٤.

٢- سورة الأنفال الآية/٧٠.

٣- سورة الأحزاب الآية/٥١.

٤- سورة البقرة الآية/٢٣٥.

٥- سورة التغابن الآية/٤.

٦- سورة غافر الآية/١٩.

٧- سورة القصص الآية/٦٩.

فهل العقلاء وأهل المحاورة بعد ملاحظة كل هذه الآيات يفهمون من قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1] ما فهمه صاحب الشبهة من انَّ الله جلَّ وعلا أراد القول بأنَّه لا يعلم بالمجاهدين والصَّابرين لذلك فهو يبتليهم ليتميَّز عنده المجاهدون والصابرون من غيرهم أو أنَّهم يجعلون من الآيات بعد صراحتها مضافاً لكثرتها قرينةً قطعيَّة على انَّ المراد من هذه الآية ليس هو ما توهَّمه صاحبُ الشبهة من انَّ الله تعالى ينفي العلم عن نفسه بمَن هم المجاهدون والصابرون.

هل نُسيت كلُّ تلك الآيات؟!

إنَّ هذا الفهم الذي توهَّمه صاحب الشبهة لا يتعقَّل منصفٌ أن يكون هو المراد إلا مع البناء على ان مُنزِّل القرآن قد نسيَ كلَّ ما أورده من تلك الآيات، وهذا لا يحتمله عاقل يحترم عقله لأنَّ القرآن لو أورد آيةً واحدة صريحةً في علم الله تعالى بما تُكنُّه قلوب عباده لكان ذلك كافياً للجزم بامتناع نسيانها، وذلك لأنَّ القرآن ليس من قبيل ما يكتبه أحدُهم في بعض صحائفه ثم يُودعه في خُزانته أو ينشره فيمضي على ذلك زمنٌ فينسى ما كان قد كتبه أو بعضَه، إنَّ آيات القرآن ليست من هذا القبيل ذلك لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسائر المسلمين يتلون آيات القرآن ليلَ نهار في

١- سورة محمد الآية/٣١.

صلواتهم الخمس اليوميَّة ونوافلهم ومحافلهم وخلواتهم ويتعاهدونها بالحفظ عن ظهر قلب، والتلاوة لها في كلٍّ وقت بقصد التيمُّن وتحصيل الثواب ويردِّدونها على صغارهم لتحفيظهم إيَّاها ويستنسخها الكتَّاب منهم ويتخابرون فيما بينهم كلَّما نزلت آيةٌ على قلب الرسولﷺ فلا يكون من المعقول أنّ ينساها -أو لا أقلَّ مضمونها- النبيُّﷺ والمسلمون مجتمعين، وقد فصَّلنا ذلك في موارد عديدة من هذا الكتاب، فلو كان ما نزل حول علم الله بما تُكنُّه الصدور آيةٌ واحدةٌ صريحةٌ وحسْب فإنَّ البناء على نسيانها أمرٌ ممتنع الوقوع كيف والآيات من الكثرة في ذلك بحيث لا تكاد تخلو منها سورةٌ من سور القرآن بل لا تكاد تمرُّ صفحاتٌ ثلاث أو أربع من القرآن لا تجد فيها ما يدلُّ على سعة علم الله تعالى واستيعابه لكلِّ شيء مما هو مشهود وما هو في مكنون الغيب، وهذه الآيات منها ما نزل قبل مثل الآية المذكورة ومنها ما نزل بعدها، ولذلك فإنَّ مقتضى الأصول العقلائية في كيفيَّة التلقِّي والتعاطي مع كلمات المتكلِّمين في مثل هذا الفرض هو حمل الآية المذكورة على معنىً لا يتنافى مع صريح الآيات الكثيرة التي ذكرنا بعضها واعتبارها قرينةً قطعيَّة على تحديد ما يراد من الآية المذكورة.

بيان المراد من الآيات الشريفة:

إذا اتَّضح ما ذكرناه فالمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ هو انَّ الغرض من الابتلاء هو تمييز المجاهدين والصابرين ممَّن عداهم للناس، فقوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ معناه حتى نميِّز المجاهدين والصابرين من غيرهم.

﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾: حتى نُميِّز ونُظهر:

فالآية استعملت كلمة العلم وأرادت منه أحد لوازمه وآثاره الظاهرة وهو التمييز، فحيث انَّ أحد أهم آثار العلم بهويَّة الشيئ وحقيقته ومشخِّصاته هو تمييزه عمَّا عداه لذلك ساغ استعمال كلمة العلم وإرادة هذا الأثر الظاهر له.

لا منافاة بين الآيات:

وعليه لا تكون الآية منافية للآيات الكثيرة والصريحة في انَّ الله تعالى يعلم بما عليه واقع عباده مطلقاً، فهو تعالى وإنْ كان يعلم بواقعهم وبواطنهم لكنَّ غيره لا يعلم بذلك فالمجاهدون والصابرون الحقيقيون غير متميِّزين عند الناس عمَّن عداهم فيكون ابتلاء الله تعالى لهم بالمحن والمصائب وبالتكليف بالجهاد هو أحد الوسائل المُنتِجة لتشخيصم عمَّن

عداهم، فمَن صبر على المصائب وجاهد في سبيل الله تعالى ظهر للناس انَّه من الصابرين والمجاهدين ومَن نَكلَ كان ممَّن عداهم، فالابتلاء من الله تعالى لعباده صار سبباً لظهور واقعهم للعيان بعد انّ كان خفيًاً عن غير الله تعالى، وكذلك فإنَّ تميُّز واقع المجاهدين والصابرين عن غيرهم يكون حجةً لله تعالى عليهم، إذ لا يصحُّ مساءلة غير الملتزمين بتكليف الله تعالى قبل تكليفهم وتميُّز الممتثلين من غيرهم، فالتمييز الناشئ عن الابتلاء هو المصحِّح للمُساءلة والمجازاة، فيكون مساق الآية المباركة هو مساق قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢] فالاستحقاق للعذاب لا يكون دون ظهور التخلُّف عن الالتزام بتكليف الله جلَّ وعلا، فهو المصحِّح للاحتجاج، وهو المصحِّح للمجازاة، ولا تكون الوسيلة للتمييز بين الخبيث والطيِّب هي الإخبار من الله بمَن هو الطيب واقعاً ومن هو الخبيث، إذ انَّ ذلك لا يُصحِّح وحده الإحتجاج والمجازاة بنظر

١- سورة آل عمران الآية/١٧٩.

٢- سورة الأنفال الآية/٣٧.

العقلاء، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾[١] فهو تعالى وإنْ كان يعلم بمكنون ما تنطوي عليه قلوبهم إلا انَّ تمييز الخبيث من الطيِّب لا يتمُّ بذلك وإنَّما يتمُّ بالابتلاء ليظهر للعيان ولأنفسهم مَن هو الطيِّب ومَن هو الخبيث فيكون ذلك مصحِّحاً للاحتجاج والمجازاة.

وممَّا ذكرناه يتَّضح المراد من مثل قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[٥] فالمراد من

١- سورة آل عمران الآية/١٧٩.

٢- سورة آل عمران الآية/١٤٠.

٣- سورة العنكبوت الآية/٣.

٤- سورة المائده الآية/٩٤.

٥- سورة البقرة الآية/١٤٣.

تمام هذه الآيات وشبهها هو التمييز والإظهار، فالمراد مثلاً من قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1] هو فليظهرنَّ اللهُ وليميِّزنَّ اللذين صدقوا وليُظهرنَّ وليُميِّزنَّ الكاذبين، وذلك بتمحيصهم وامتحانهم وتكليفهم فمَن ثبت وامتثل التكاليف فهو ممَّن يخاف الله، وهو ممَّن يتَّبع الرسولﷺ وهو من الصادقين في دعواه الإيمان، ومَن لم يثبت ولم يلتزم بامتثال التكاليف فهوممَّن اعتدى، وممَّن انقلب على عقبيه، وهو من الكاذبين.

مؤيدان لدفع الشبهة:

المؤيد الأول:

والذي يُؤيِّد انَّ المراد من مثل قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أو﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ في هذه الآيات ليس هو ما توهَّمه صاحب الشبهة من انَّ الله لم يكن يعلم ثم يحصل له العلم بالابتلاء، وإنَّما المراد منه التمييز والإظهار، الذي يُؤيِّد إرادة ذلك هو مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ وَلَيَعْلَمَنَّ

١- سورة العنكبوت الآية/٣.

اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[١] فإنَّ الآية بعد ان صرَّحت انَّ الله تعالى أعلم بما في صدور العالمين قالت: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ مما يكشف كشفاً قطعيّاً عن انَّ المراد من قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ ليس هو العلم بعد الجهل وإلا فكيف يكون أعلم بما في صدور العالمين ثم يقول في ذات الوقت انَّه لايعلم بالمؤمنين والمنافقين وانَّه يبتليهم حتى يحصل له العلم.

المؤيد الثاني:

وكذلك يمكن التأييد بقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢] فقد أفادت الآية انَّه يبتلي ما في صدورهم، وهو من مكنون الغيب، ويمحِّص مافي قلوبهم، وهو من مكنون الغيب ثم يقول انَّه: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فإذا كان يعلم مافي صدورهم فلماذا الابتلاء والتَّمحيص لولم يكن الغرض منه التمييز والإظهار، وليس تحصيل العلم لأنَّه صرَّح في ذيل الآية انَّه: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

والحمد لله رب العالمين

١- سورة العنكبوت الآية/١٠.

٢- سورة آل عمران الآية/١٥٤.

المصادر المراجع

المصادر والمراجع

١. **القرآن الكريم.**

٢. **الاصول من الكافي:** تأليف الشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي ، توفي سنة ٣٢٩ هجرية، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الخامسة ١٣٦٣ شمسي، مطبعة حيدري، نشر دار الكتب الإسلامية- طهران.

٣. **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**: تأليف العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، المتوفى سنة ١١١١هجري، الطبعة الثانية المصححة- ١٤٠٣هجرية- ١٩٨٣ميلادي، نشر مؤسسة الوفاء - بيروت- لبنان.

٤. **التبيان في تفسير القرآن:** تأليف شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المتوفى ٤٦٠ - ٣٨٥ هجري، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي، الطبعة الأولى، سنة الطبع رمضان

المبارك ١٤٠٩هجرية، المطبعة مطبعة مكتب الإعـلام الإسـلامي، نشر مكتب الإعلام الإسلامي.

٥. **تفسير ابن أبي حاتم:** تأليف ابن أبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٧هجرية، تحقيق أسعد محمد الطيب،نشر المكتبة العصرية - صيدا.

٦. **تفسير القمي:** تأليف أبي الحسن علي بن إبراهيم القمي(من أعلام قرني الثالث والرابع الهجري) المتوفى ٣٢٩ هجرية، صحّحه وعلّق عليه وقدّم له حجة الاسلام العلامة السيد طيب الموسوي الجزائري ، نشر مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر قم- إيران.

٧. **تفسير جوامع الجامع:** تأليف الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية، تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٨هجرية، طبع ونشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٨. **تفسير نور الثقلين:** تأليف المحدث العلامة الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي(قدس سره)، المتوفى سنة ١١١٢هجرية، صححه وعلّق عليه وأشرف على طبعه الحاج

السيد هاشم الرسولي المحلاتي الحاج أبى القاسم المشتهر بسالك، الطبعة الرابعة، سنة الطبع١٤١٢هجري- ١٣٧٠ شمسي، نشر مؤسسة اسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع بقم المقدّسة- إيران.

٩. **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة:** تأليف الفقيه المحدث الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي المتوفى سنة ١١٠٤ هجرية، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٤١٤ هجرية، مطبعة مهر- قم، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث بقم المقدسة.

١٠.**التوحيد:** تأليف الشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، تصحيح وتعليق السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

١١.**جامع البيان عن تأويل آي القرآن:** تأليف ابو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هجرية، قدم له الشيخ خليل الميس ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، سنة الطبع ١٤١٥ هجرية- ١٩٩٥ميلادي، طبع ونشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٢. **الجامع لاحكام القرآن (تفسير القرطبي):** تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المتوفى سنة ٦٧١هجرية، تحقيق وتصحيح أحمد عبد العليم البردوني، أعاد طبعه دار احياء التراث العربي بيروت - لبنان ١٤٠٥هجرية- ١٩٨٥ميلادي، نشر دار إحياء التراث العربي - بيروت- لبنان.

١٣.**خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب:** تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣هجرية، تحقيق: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع اليعقوب، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٩٨ ميلادية، مطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، نشر دار الكتب العلمية ببيروت لبنان.

١٤. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور:** تأليف جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هجرية، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت- لبنان.

١٥. **الديباج على مسلم:** تأليف جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هجرية، الطبعة الأولى١٤١٦ - ١٩٩٦ميلادية، نشر دار ابن عفان للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية.

١٦. **السنن الكبرى:** تأليف الحافظ الجليل أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي المتوفي ٤٥٨ هجرية، طبع ونشر دار الفكر.

١٧.**شرح الرضي على الكافية:** تأليف رضي الدين الأسترابادي، توفى سنة ٦٨٦ هجرية، تحقيق : تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، طبعة سنة ١٣٩٥هجرية- ١٩٧٥ ميلادي، نشر مؤسسة الصادق- طهران.

١٨. **شرح صحيح مسلم:** تأليف النووي المتوفى سنة ٦٧٦هجرية، سنة الطبع ١٤٠٧ هجرية- ١٩٨٧ميلادية، طبع ونشر دار الكتاب العربي الرملة البيضاء- لبنان.

١٩. **صحيح البخاري:** تأليف محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري ، توفي سنة ٢٥٦ هجرية، طبع سنة ١٤٠١ هجرية ١٩٨١ ميلادية، طبع ونشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٠. **علل الشرايع:** تأليف الشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، تحقيق وتقديم السيد محمد صادق بحر العلوم، طبع سنة ١٣٨٥هجرية- ١٩٦٦ميلادي، طبع ونشر منشورات المكتبة الحيدرية- النجف الأشرف.

٢١. **عمدة القاري:** تأليف محمود بن احمد العيني ، توفي سنة ٨٥٥ هجرية، طبع ونشر دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٢. **فتح الباري شرح صحيح البخاري:** تأليف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، توفي سنة ٨٥٢ هجرية، الطبعة الثانية، طبع ونشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت- لبنان.

٢٣. **الفروع من الكافي:** تأليف الشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي ، توفي سنة ٣٢٩ هجرية، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الخامسة ١٣٦٣ شمسي، مطبعة حيدري، نشر دار الكتب الإسلامية- طهران.

٢٤. **فقه القران:** تأليف قطب الدين أبي الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي، المتوفى سنة ٥٧٣ هجرية، تحقيق السيد احمد الحسيني باهتمام السيد محمود المرعشي، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٤٠٥هجرية، مطبعة الولاية بقم المقدّسة، نشر مكتبه آية الله العظمى النجفي المرعشي.

٢٥. **الكتاب المقدس:** مجمع الكنائس الشرقية، الطبعة الثانية تشرين الثاني ١٩٨٨ميلادية، الناشر دار المشرق بيروت - لبنان، التوزيع المكتبة الشرقية- بيروت(جمعيات الكتاب المقدس في الشرق بيروت - لبنان).

٢٦. **لسان العرب:** تأليف أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري ، المتوفى سنة ٧١١ هجرية، طبع سنة ١٤٠٥ هجرية، نشر أدب الحوزة قم- إيران.

٢٧. **مجمع البيان في تفسير القران:** تأليف ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري، حققه وعلق عليه لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، قدّم له السيد محسن الأمين العاملي، الطبعة الأولى(تمتاز هذه الطبعة بتحقيقات مهمة)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان.

٢٨. **مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام:** تأليف زين الدين بن علي العاملي المعروف بـ(الشهيد الثاني)، المتوفى سنة ٩٦٥ هجري، تحقيق ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١٣هجرية، مطبعة بهمن- قم المقدسة.

٢٩. **المستدرك على الصحيحين:** تأليف الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥هجري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي ، طبعة مزيدة بفهرس الأحاديث الشريفة بإشراف د . يوسف عبد الرحمن المرعشلي، طبع ونشر دار المعرفة بيروت- لبنان.

٣٠. **مسند احمد:** تأليف احمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هجرية، طبع ونشر دار صادر - بيروت - لبنان.

٣١. **معاني القرآن الكريم:** تأليف ابو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هجرية، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني(الأستاذ بجامعة أم القرى)، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هجرية- ١٩٨٨ ميلادية، طبع ونشر جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية.

٣٢. **من لا يحضره الفقيه:** تأليف الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، المتوفى سنة ٣٨١ هجرية، تحقيق تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

الفهرس الإجمالي

الفهرس الاجمالي

الشبهة الثالثة والعشرون

دعوى إختلاف قول موسى عندما آنس النار ٧

الشبهة الرابعة والعشرون

نجى فرعون من الغرق أو لا ؟! ٢١

الشبهة الخامسة والعشرون

قارون من قوم موسى أومن قوم فرعون؟ ٣١

الشبهة السادسة والعشرون

شارك هارون في عبادة العجل أو لم يشارك؟!.................... ٤٩

الشبهة السابعة والعشرون

اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.. ٧٥

الشبهة الثامنة والعشرون

كيف انتبذت لوحدها مكاناً قصيًا ٨٧

الشبهة التاسعة والعشرون

الجمع بين أرسلنا روحنا ونفخنا من روحنا........................ **٩٩**

الشبهة الثلاثون

ما قتلوه وماصلبوه ولكنًه يموت **١١١**

الشبهة الواحدة والثلاثون

إختلاف عدد الملائكة اللذين تحدثوا إلى مريم **١٢٣**

الشبهة الثانية والثلاثون

تشبيه حملة التوارة بالحمار........................ **١٣٩**

الشبهة الثالثة والثلاثون

المشركون يكتمون الله حديثاً أو لا يكتمون **١٥١**

الشبهة الرابعة والثلاثون

أيُهما خُلق أولاً الأرض أو السماء؟ **١٦٥**

الشبهة الخامسة والثلاثون

خَلَقَ السماوات والأرض في أيام ستة أو ثمانية؟! **١٨٣**

الشبهة السادسة والثلاثون

من طينٍ لازب أو حمأٍ مسنون.. ١٩٥

الشبهة السابعة والثلاثون

نُبذ بالعراء أو لم ينبذ ؟!.. ٢٠٧

الشبهة الثامنة والثلاثون

الإختلاف فيما أهلك قوم عادٍ وثمود ٢١٣

الشبهة التاسعة والثلاثون

تغيير عدة المتوفى عنها زوجها ٢٣٧

الشبهة الاربعون

آيتا التحليل والتحريم أيهما نسخ الآخر؟.................................. ٢٦١

الشبهة الواحدة والاربعون

تمحيص الله لعباده لا ينفي علمه بواقعهم ٢٩١

المصادر والمراجع ٣٢٣

الفهرس الإجمالي ٣٣٣

الفهرس التفصيلي ٣٤٠

الفهرس التفصيلي

الفهرس التفصيلي

الشبهة الثالثة والعشرون

دعوى إختلاف قول موسى عندما آنس النار ٧

الجواب ٩

تعدد الألفاظ والمؤدى واحد ٩

كلام موسى عليه السلام تمحور في موضوعين ٩

الموضوع الأول: جلبُ الشُعلة ٩

المؤدى واحد ١٠

الموضوع الثاني: التقصِّي عن خبرٍ ينشُده ١١

المؤدى واحد ١١

الهدى في الآية ليس بمعنى الإهتداء بالدين ١٢

لا تناقض حتى مع القول بالهداية للدين ١٤

التناقض فرع التكاذب ١٥

مثالٌ توضيحي ١٥

تطبيق الكلام على محلٍّ البحث ١٦

التوهُّم الأخير: إختلاف درجة الوثوق ١٧
موسى عليه السلام لم يكن جازماً في كلا الآيتين ١٨

الشبهة الرابعة والعشرون

نجى فرعون من الغرق أو لا ؟! ٢١
الجواب ٢٣
لا تنافي بين الغرق ونجاة البدن ٢٣
الرويات الشريفة تُعلِّل نجاة بدن فرعون ٢٤
مفاد الآية نجاة البدن وليس نجاة الذات ٢٥
القرآن يفرق بين نجاة الذات ونجاة البدن ٢٥
إلتفاتة أخيرة ٢٧

الشبهة الخامسة والعشرون

قارون من قوم موسى أومن قوم فرعون؟ ٣١
الجواب ٣٣
مغالطة واهية! ٣٣
منشأ ذكر قارون مع فرعون وهامان ٣٤
ماهو الوجه في ذكر قارون ضِمن مَن بُعث إليهم موسى عليه السلام؟ ٣٥
فجوابه ٣٥

أولا: موسى عليه السلام بُعث لبني اسرائيل أيضاً ٣٥
مثالٌ توضيحي ٣٦
ثانيا: قارون مِن ملأ فرعون أيضاً ٣٧
قارون ليس من قوم فرعون ٣٨
خلاصةٌ ومزيدُ بيان ٣٩
وجهٌ آخر لمنشأ الشبهة ٤١
الجواب ٤٢
هل آمن قارون؟ ٤٢
حتى لو آمن فلا تناقض ٤٣

الشبهة السادسة والعشرون

شارك هارون في عبادة العجل أو لم يشارك؟!......................... ٤٩

الجواب ٥١

مقدِّمة: دعوى جزافيَّة ٥١
المحور الأول: الكلام في دعوى المشاركة ٥٢
تحرير الدعوى ٥٢
جوابُ الدعوى ٥٣
أولاً: كيف شاركهم وهم قد استضعفوه حتى كادوا أن يقتلوه؟! ٥٣
ثانياً: هارون عليه السلام يُصرِّح بأنَّهم أعداءٌ و ظالمون! ٥٤

لماذا دعى موسى عليه السلام لأخيه بالمغفرة؟ ٥٥
لا ملازمةَ بين الدعاء بالمغفرة وصدور الذنب ٥٧
بحث في دواعي الدعاء بالمغفرة(الاستغفار) ٥٩
١- الإستغفار عن مخالفة الأولى ٥٩
٢- الإستغفار عن التقصير ٥٩
٣- الإستغفار للتقرّب ٦٠
النتيجة ٦١
ما هو منشأ استغفار موسى عليه السلام لنفسه و أخيه؟ ٦١
ما لكم كيف تحكمون؟! ٦٣
منشأ غضب موسى عليه السلام على أخيه ٦٣
المحور الثاني: الكلام في دعوى السماح ٦٦
من أين جاءت دعوى السماح؟ ٦٦
١- هل في كلام هارون عليه السلام إذنٌ مباشر أو غير مباشر؟! ٦٦
٢- حتى بني اسرائيل لم يفهموا منه السماح! ٦٧
٣- وهل في كلام موسى عليه السلام ما يدلُّ على السماح؟! ٦٨
الخلاصة ٧١

الشبهة السابعة والعشرون

اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ٧٥

الجواب ٧٧

ما المانع من حدوث مجزرتين؟! ٧٧

وما دخْلُ القرآن بتأريخكم؟! ٧٨

هل نُفِّذ القرار الثاني؟ ٧٩

خلاصة ٧٩

مطالعة تاريخيَّة و قرآنيَّة لمجريات الموضوع ٨٠

الشبهة الثامنة والعشرون

كيف انتبذت لوحدها مكاناً قصيًا ٨٧

الجواب ٨٩

تحريرُ وجهِ الشبهة ٨٩

جوابُ الشبهة ٩١

أين هو التناقض؟! ٩٢

وهل خرجت إلّا بعناية الربّ تبارك و تعالى؟! ٩٣

منبِّهٌ أخير ٩٥

الشبهة التاسعة والعشرون

الجمع بين أرسلنا روحنا ونفخنا من روحنا ٩٩

الجواب ١٠١

منشأ الشبهة ١٠١
المراد من الآية ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ ١٠١
المراد من الآية ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ ١٠٣
أين التنافي؟! ١٠٤
مناقشة تنزُّليّة ١٠٤
الخلاصة ١٠٧

الشبهة الثلاثون

ما قتلوه وماصلبوه ولكنّه يموت ١١١

الجواب ١١٣

نعم ، السيد المسيح سوف يموت ١١٣
بحث في مناشئ دعوى التنافي ١١٥
أ- إستظهار أنّه مات من قوله: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ ١١٥
ب- إستظهار أنّه مات لقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ..﴾ ١١٦
الموت بالرفع يعني انّه لم يمت بالصلب والقتل ١١٧
ج- توهُّم انّ رفعه للسماء يقتضي إمتناع موته ١١٧
إحتمالان وجوابان ١١٨
أ- إنّ رُفع ميّتاً فلا معنى لموته بعد ذلك! ١١٨
ب- إنّ رُفع حيّاً فما المانع من موته بعدذلك؟! ١١٨

الحقيقة والصدمة.. ١١٩

الشبهة الواحدة والثلاثون

إختلاف عدد الملائكة اللذين تحدثوا إلى مريم ١٢٣

الجواب ١٢٥

الجواب على وجهين.. ١٢٥

الوجه الأول: على فرض انَّها حادثة واحدة ١٢٥

النتيجة ١٢٨

الوجه الثاني: إفتراض أنَّها حادثتان ١٢٩

تكرُّر البشارة.. ١٢٩

لا مانع من تعدُّد الواقعة... ١٣١

ظاهر الآيات يُفيد التعدُّد... ١٣٣

مؤيِّد لتعدُّد الواقعة... ١٣٤

الخلاصة.. ١٣٥

الشبهة الثانية والثلاثون

تشبيه حملة التوارة بالحمار.. ١٣٩

الجواب ١٤١

نعم، التحميل يقتضي العلم ١٤١

وجه التشبيه بالحمار ١٤٢
لا تناقض بين الآيتين ١٤٣
القرائن المؤكِّدة لوجه الشبه ١٤٤
١- قرينة السياق ١٤٤
٢- قرينة الوصف ١٤٥
القرآن يُؤكِّد كثيراً على أنَّهم يعلمون! ١٤٦
الخلاصة ١٤٧
القرينة الأولى ١٤٧
والقرينة الثانية ١٤٧
والقرينة الثالثة ١٤٧
والقرينة الرابعة ١٤٨

الشبهة الثالثة والثلاثون

المشركون يكتمون الله حديثاً أو لا يكتمون ١٥١
الجواب ١٥٣
منشأُ الدعو ١٥٣
هل يكذبون يوم القيامة؟ ١٥٣
الآيةُ صريحةٌ في أنَّهم يكذبون! ١٥٥
الدعوى تُجافي الإنصاف! ١٥٥

المراد من الآية ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾: ١٥٨
كذبُهم ليس من الكتمان ١٥٩
مثالٌ توضيحي ١٥٩
بيانٌ آخر للآية الشريفة ١٦٠
مثالٌ آخر توضيحي ١٦١

الشبهة الرابعة والثلاثون

أيُّهما خُلق أولاً الأرض أو السماء؟ ١٦٥
السؤال الثاني ١٦٦
الجواب ١٦٧
منشأ الإشكال ١٦٧
وبيان ذلك ١٦٨

الشبهة الخامسة والثلاثون

خَلَقَ السماوات والأرض في أيام ستة أو ثمانية؟! ١٨٣
الجواب ١٨٥
نعم، هي ستةُ أيام ١٨٥
إحترموا عقولكم! ١٨٦
هل أخطأ الأوّلون والآخرون في الحساب؟! ١٨٧

بيان المراد من الآيات الشريفة: ١٨٨
أمثلةٌ توضيحيَّة ١٨٩
أ- مثالٌ على حساب المسافة ١٨٩
مثالٌ على حساب الزمن ١٩٠
مثالٌ على حساب الكيل ١٩٠
النتيجة ١٩٠

الشبهة السادسة والثلاثون

من طينٍ لازب أو حمإٍ مسنون ١٩٥

الجواب ١٩٧

مبدأ خلق الإنسان الأول ١٩٧
أين هو التنافي ؟! ٢٠٠
لمَ الإشارة لتلك المراحل ؟ ٢٠٠
عدم التصدّي لبيان الترتيب بين المراحل ٢٠١
هذا الإسلوب متعارفٌ عند أهل الكلام والمحاورة ٢٠٢
أمثلة توضيحيَّة ٢٠٣
الخلاصة ٢٠٤

الشبهة السابعة والثلاثون

نُبذ بالعراء أو لم ينبذ ؟!..................................... ٢٠٧

الجواب ٢٠٩

الآية إنَّما نفت الحال ولم تنفِ الفعل ٢٠٩

مثالٌ توضيحي ٢١٠

الشبهة الثامنة والثلاثون

الإختلاف فيما أهلك قوم عادٍ وثمود ٢١٣

الجواب ٢١٥

أوصاف عذاب ثمود ٢١٥

١- الرجفة ٢١٥

٢- الصَّيحة... ٢١٥

٣- الصّاعقة ٢١٦

٤- الطّاغية ٢١٧

قصّة عذاب ثمود ٢١٧

تفسير عناوين العذاب الأربعة ٢١٩

العنوان الأول ٢١٩

العنوان الثاني ٢٢٠

العنوان الثالث: وهو الصاعقة فهو يرد لعدة معانٍ أهمها ثلاثة ٢٢٢
المعنى الأول ٢٢٢
المعنى الثاني ٢٢٣
المعنى الثالث ٢٢٣
وأما العنوان الرابع ٢٢٧
ماذا عن قوم ثمود؟ ٢٢٨
كانت الصاعقةُ طاغيةً ٢٢٨
ما المانع في أنْ تجتمع عقوبتان في آنٍ واحد؟! ٢٣٠
الصَّاعقة هي مطلق العذاب ٢٣٠
القرينة على استعمال الصَّاعقة في مطلق العذاب ٢٣١
فلتكن عقوبتين.. أين التناقض؟! ٢٣٣
الخلاصة ٢٣٤

الشبهة التاسعة والثلاثون

تغيير عدة المتوفى عنها زوجها ٢٣٧
الجواب ٢٣٩
آية الحول غير ظاهرة في العدّة ٢٣٩
لا منافاة ولا نسخ! ٢٤٠
ظهور آية الحول في الإيصاء للزوجة ٢٤٠

مناقشة القول بالنسخ ٢٤٢
لو سلّمنا بالنسخ فلا تتمُّ الشّبهة أيضاً ٢٤٣
هل النسخ يستلزم الجهل؟! ٢٤٤
الجواب ٢٤٤
أمثلة للتوضيح ٢٤٦
المثال الأول ٢٤٦
المثال الثاني ٢٤٧
تطبيق الجواب على مورد الشبهة ٢٤٧
العلّة في تخفيف العدّة ٢٤٨
هل تتبدّل المصلحة؟! ٢٤٩
إشكال: هل اختلف الزمانان لتختلف العدّة؟ ٢٥٠
الجواب ٢٥٠
جواب نقضي من كتاب العهدين ٢٥٤
الطلاق مباحٌ ثم حرام كحرمة الزنا!! ٢٥٤
لماذا؟! ٢٥٧

الشبهة الاربعون

آيتا التحليل والتحريم أيهما نسخ الآخر؟ ٢٦١
الجواب ٢٦٣

تحرير الشبهة ٢٦٣
الرّد: شرط ثبوت النسخ ٢٦٤
الشرط غير متحقِّق! ٢٦٥
مناقشة فيما نُسِب للسيدة عائشة ٢٦٥
بيان المراد من آيتي التحليل التحريم ٢٦٧
الأقوال في مراد الآيتين: الأصناف المسمَّاة ٢٦٨
القول الأول: تحليل الأصناف المسمَّاة وتحريم غيرها ٢٦٨
وبيان ذلك ٢٦٨
نتيجة القول الأول ٢٧٠
القول الثاني: تحليل النساء المسمّيات و تحريم الكافرات ٢٧٠
نتيجة القول الثاني ٢٧٢
القول الثالث: تحليل المسمّيات وتحريم الأمهات والأخوات و... .. ٢٧٢
نتيجة القول الثالث ٢٧٤
القول الرابع: تحليل النساء المعنيَّات وتحريم غيرهنّ ٢٧٥
نتيجة القول الرابع ٢٧٦
لا محذور هنا في القول بالنسخ ٢٧٧
خلاصة الأقوال الأربعة ٢٧٨
إيرادات على الشبهة ٢٨٠
الإيراد الأول ٢٨٠

الإيراد الثاني ٢٨١

الإيراد الثالث ٢٨٢

نماذج من نسخ الحكم الأشقّ ٢٨٤

النموذج الأول ٢٨٤

النموذج الثاني ٢٨٦

نسخ الحكم الأشق في التوراة و الإنجيل! ٢٨٦

المورد الأول ٢٨٧

المورد الثاني ٢٨٨

الشبهة الواحدة والاربعون

تمحيص الله لعباده لا ينفي علمه بواقعهم ٢٩١

الجواب ٢٩٣

تحصيلُ العلم غير مرادٍ قطعاً ٢٩٣

وللتثبُّت ممَّا ذكرناه نتيمَّن بنقل بعض هذه الآيات ٢٩٤

أولاً: الآيات التي أفادت أنَّ الله تعالى بكلِّ شيئٍ عليم ٢٩٤

ثانياً: الآيات التي أفادت أنَّ الله تعالى يعلم بمقادير الأشياء وإنّ دقَّت وأعدادها وأحوالها وآجالها ٢٩٧

ثالثاً: الآيات التي أفادت أنَّ الله تعالى يعلم بكلِّ أفعال العباد وأقوالهم ٣٠٠

رابعاً: الآيات التي أفادت أنَّ الله تعالى يعلم ببواطن عباده ٣٠٣
خامساً: الآيات التي أفادت أنَّ الله تعالى يعلم بأحوال عباده وماضيهم ومستقبلهم ٣٠٦
مالكم كيف تحكمون ؟! ٣٠٨
الشبهة مخالفة لمسلك العقلاء ٣٠٩
مثالٌ للتوضيح ٣١٠
تطبيق مسلك العقلاء في المقام ٣١٠
هل نُسيت كلُ تلك الآيات؟! ٣١٣
بيان المراد من الآيات الشريفة ٣١٥
﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾: حتى نُميِّز ونُظهر ٣١٥
لا منافاة بين الآيات ٣١٥
مؤيدان لدفع الشبهة ٣١٨
المؤيد الأول ٣١٨
المؤيد الثاني ٣١٩

المصادر والمراجع ٣٢٣

الفهرس الإجمالي ٣٣٣

الفهرس التفصيلي ٣٤٠